

مهندس على الطريق ”

أمير الظل

عبد الله غالب البرغوثي



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
الْحٰمِدُ لِلّٰهِ الْعَظِيْمِ

إِهْدَاءٌ

إلى والدي ووالدتي أطّال الله بعمرهما
إلى زوجتي وأطفالي تala وأسامته وصفاء
إلى كل من ساعد وساهم لكي يرى هذا الكتاب النور
للفلسطين والقدس والأقصى
للقدوس والقدس والقسام

أهدي كتابي هذا لهم جميعاً وللذين لعن الاحتلال

عبد الله البرغوثي
أمير الظل

مُقَدِّمةٌ

تثور النار إن اختنقت بالحطب وتحرق كل من للحق اغتصب

ثرت مرةً بإذن ربى على المحتل الغاصب ، وها أنا أثور اليوم أيضاً بعون ربى على السجن والسجّان لأكتب قصتي ، قصة مقاوم قصد وجه ربه ورفع السلاح بوجه الظلم ، لعل رصاصات الحق تعيد طريق النصر والحرية .

عبر جوابي على رسالة ابنتي ، وردّي على تساؤلاتها ، لعلي أكون قد أوضحت لها ما يدور في ذهنها حول ذلك السؤال الذي تردد كثيراً : " من أنت؟ ولم أنت؟ " ..

ولعلي أكون عبر تجربتي المتواضعة قد ساهمت ولو قليلاً من خلال صفحات هذا الكتاب ومن خلال مقاومتي للمحتل بأن أشعل شمعة على درب الحرية ، فأنا أكره الظلم ؛ وأكره من يلعنون الظلم .

عبد الله غالب البرغوثي

" من زرّانة العزل الانفرادي التي مازلت أملأ فيها منذ عام ٢٠٠٣ حتى اليوم "

رسالة من تala ، أسامة وصفاء :

" إلى أبينا الغالي على قلوبنا ، نكتب لك هذه الرسالة بمناسبة ذكرى دخولك المعتقل ، هذه الذكرى التي قد مر عليها عشرة أعوام ، وأنت يا أبانا خلف القضبان والأسوار ، خلف القضبان داخل غرفة العزل الانفرادي لا ترى أحداً ولا تكلم أحداً .

أبانا ، بل أبي فأنا ابنته تala التي تكتب هذه الرسالة نيابة عن إخوتي أسامة وصفاء ، أكتب يا والدي معاذةً ؛ حائرةً ومتسائلةً ، فأنا لا أدرى إن كان يحق لي أصلاً أن أهاتك وأسألوك تلك الأسئلة التي تدور في ذهني ، ولكن حيرني ؛ حيرني التي دفعتني لهذا السؤال الذي لم أجده عليه إجابة من أولئك الذين من حولي ، فكل واحد منهم يجيب إجابةً مختلفةً جداً عن إجابة الآخر ، رغم أن السؤال هو هو ! لم يتغير ولم يتبدل !!

أبي الغالي ، أبي الحبيب ، أعلم أن صدرك واسع وأنك تجib على أسئلتي دائمًا قبل أن أسألك أصلاً ، فأنت الأب الذي لا يتضايق من أسئلة أبنائه الصغار ، لكنني اليوم قد أصبحت كبيرة ، وكبرت معك تلك الأسئلة التي أخضها لك بسؤال واحد ؛ لعلي أجده عندك الجواب الشافي عليه ؛ وهو : من أنت ؟ من أنت يا أبي ؟

أنت ذلك الطيب الحنون كما تقول جدتي ؟ أم أنت ذلك القاسي منزوع القلب كما يقول جدي ؟ هل أنت المحب العاشق الذي جاء على حصانه الأبيض ليأسرك قلب أمي فتقع في حبك ؟ أم أنت ذلك الذي جاء من المجهول وغادر أيضاً إلى المجهول فكسر قلب أمي وجعلها تبكي وتبكي ما إن يُذكر اسمك أمامها ؟

قالوا عنك جبار قوي لا ترحم ، وقالوا أيضاً أنك تملك عقلين ؛ لا عقلاً واحداً مثل باقي البشر ، فقالوا أنك استبدلت قلبك بعقل آخر !

ولكن ما يجري أيضاً يا والدي الحبيب أنهم أيضاً يقولون أنه لو لا أن قلبك كبير وأنك حنون طيب لما وصلت إلى ما وصلت إليه ، لما قاتلت ولما عني ابتعدت ، لا أدرى من أنت ، من أنت ؟ أنت تلك الصورة التي كتب عليها تلك الجملة التي لا أفهم لها معنى : "الأسير البطل" ! أسير بطل ! كيف يصبح الأسير بطلاً ؟ أم أن السؤال هو كيف يصبح البطل أسيراً ؟

هل أنت مقاوم بطل ؟ أم أنك مجرد متهرور مندفع خاض حرباً لا ناقة له بها ولا جمل ؟ قل لي بربك يا عبد الله الجمل من أنت ؟ أليس هذا هو اسمك قبل أن يصبح عبد الله البرغوثي أو عبد الله القسام ؟

من أنت ؟ أنت ذلك الظل الذي لا أرى صاحبه ولكنه يمد لي يد المساعدة دون أن أطلب ، هل تعلم يا والدي الحبيب أنك الأب الوحيد الذي لا ينسى ذكري ميلاد أبنائه وذكرى ميلاد من يحب ؟ كل الآباء ينسون ؛ إلا أنت فلا تنسى ، ما دمت لا تنسى لماذا غبت عنا طوال هذه الأعوام ؟ ألم تكن تعلم أن من يقاتل يغيب ويبتعد عن من يحبهم ؟

والدي أجب على سؤالي من أنت ؟ ولماذا تركتنى طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرى الثلاثة أعوام ملقاًة بسيارة تحاصرها الكلاب من كل صوب ؟ لماذا تركتنى في البرد القارص بعد أن غبت ولم أعد أراك ؟

بالله عليك يا أبي قل لي من أنت؟ قل وأجب على أسئلتي سواء التي سألتها أم تلك التي
لم أجرؤ على سؤالك إليها ، من أنت يا أمير الظل؟ من أنت؟ "

ابنتك المحبة تار



ابنتي الحبيبة على قلبي وعلى عقلي تala ، وأحبتني أسامة وصفاء ، وأبي وأمي وزوجتي
الغالية ، رسالتك قد وصلني قبلها وبعدها العديد من الرسائل التي تحتوي على هذا السؤال :
"من أنت؟" ، سؤال آخر أكثر تعقيداً وهو ذلك السؤال الذي تكرر كثيراً : "لماذا أنت؟".

ابنتي الحبيبة وملاكي الحارس : هذه الأسئلة والتساؤلات تحتاج إلى شخص فيلسوف
لكي يجيب عليها ويشرح الأسباب ، ويوضح الأمور ليسهل عليك فهمها ، أما أنا فمجرد شخص
عادي ؛ وأقل من عادي ، ويصعب علي أن أجيب على تلك الأسئلة ، ولكنني سوف أقصّ عليك
قصتي وقصة حياتي ، لعلك يا ملاكي الحارس تجدين أجوبة على أسئلتك ، لعلك تستطعين أنت
يا ابنتي أن تقولي لي من أنا ، ولماذا أنا .

حبيبي الصغيرة قد بدأت قصتي من هناك ، هناك بعيداً عن فلسطين وعن التين والزيتون ،
هناك في الصحراء ، فلقد ولدت بالكويت ، وأحببت الكويت وما زلت أحبها ، وأذكر النشيد
الوطني لها وأردده :

وطني الكويت سلمت للمجد وعلى جبينك طالع السعد

ذلك النشيد الذي ظللت أرده طوال أعوام طفولتي ، حتى جاء اليوم الذي ما عدت فيه طفلاً
صغيراً ؛ فلقد كبرت فجأة ودون مقدمات ، وكان ذلك عندما اندلعت انتفاضة الحجارة في
فلسطين ، عندما استشهد ابن عمي محمود ؛ وعمي إسماعيل ؛ واستشهادا في فلسطين ؛ أقمنا لهما
في الكويت عرساً ، عرس الشهداء !

لم أكن أعلم أن هناك أعراساً تقام للموتى ؛ لقتلى ؛ ولكنني علمت أن هناك أعراساً تقام
للسشهداء ، من هم أولئك الشهداء ؟ وكيف أصبحوا مضمخين بدمائهم إلى مثواهم ، إلى جنة
الخلد ، من هم ؟ لم أكلمهم ولم أرهم ؛ وحتى لم أكن أعلم عنهم أي شيء .

سألت وسألت ، وجاءني الجواب ، قالوا لي إن محمود هو ابن عمي الكبير ، وقالوا إن
إسماعيل هو أصغر أعمامي ، ولقد كان الاثنين قريبين في العمر و قريبين في صداقتها ، ببساطة
لقد ألقوا الحجارة على قوات الاحتلال الصهيوني التي كانت تعيث خراباً في قريتنا فأطلقت
تلك القوات عليهم وابلاً من الرصاص فاستشهدوا .

قالوا لي : "اعلم أنك من هناك ؛ من فلسطين ، من قرية اسمها بيت ربيا" ، وقالوا أيضاً :

"أنت فلسطيني" ، وهكذا يا ابنتي لم أعد كويتياً كما كنت أظن وكما كنت أغنى ، بل فلسطيني ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أردد أنشودة أخرى تتحدث عنني وعن فلسطين ، فلسطين الشهداء ، فلسطين الأسيرة ، كانت تلك الأنشودة تقول :

محمد جمجوم وفؤاد حجازي جازي عليهم يا شعبي جازي

أنشودة تتحدث عن أبطال ثلاثة هم : "عطاطا الزير" و "محمد جمجوم" و "فؤاد حجازي" ، أعدموا من قبل القوات البريطانية ؛ تلك القوات التي نصبّت لأنباء فلسطين المشانق ، وأعطت الصهاينة وعداً مشئوماً اسمه وعد بلفور ، ذلك الحقير القدر الذي أعطى ما لا يملك أصلاً إلى من لا يستحق ، أعطى أطهر أرض - فلسطين - إلى أقدر شعب ؛ إلى الصهاينة المحتلين .

ومن هنا يا ملاكي الحراس كبرت ولم أعد طفلاً صغيراً ، كبرت وكبرت معك فكرة المقاومة ، وطرد الاحتلال ، وعقاب المحتلين على جرائمهم بحق فلسطين وحق محمود وإسماعيل وبحق كل شهيد .

كنت يا ابنتي الحبيبة و يا ملاكي الحراس أشاهد على التلفاز كيف يقوم جنود الاحتلال بتكسير عظام أطفال فلسطين ؟ أطفال الحجارة ؛ رجال الانتفاضة وصقرورها ، ولذلك قررت أن أصبح قوياً ؛ قوياً جداً حتى لا يكسر عظمي ، وحتى أدفع عن من أحبهم ، عن القدس والأقصى وعن فلسطين .

في تلك الأثناء قدر الله أن أتعرض للضرب على يد عدد من التلاميذ في المدرسة ، كانوا

أكثر وأقوى ؛ وكنت وحيداً وأضعف ، وعلى الفور انضمت لنادي الرياضة الجودو ، عند مدرب اسمه "منير سميكي" ، وبدأت تدريسي بنادي الجهراء بالكويت ، كان المدرب فلسطينياً ؛ ولقد كان يدرب أيضاً فريق منظمة التحرير الفلسطينية بمدينة "حولبي" بصمت وبجد على فنون الجودو ، ولكنني لم أكتف ، فلقد أردت أن أكون قوياً جداً ؛ فأضفت إلى الجودو التدريب على رياضة الملاكمة وأيضاً كمال الأجسام ؛ ولذلك كنت أمضي كل أوقاتي بعد الدراسة متنقلًا بين قاعات التدريب ، لم أكن أشارك بالمسابقات ولم أحصل على الميداليات ؛ بل كنت أشارك بالمشاجرات سواء بالمدرسة أو في الحي الذي أقطن فيه وأحصل في بعض الأحيان على الكثير من الكدمات أو الكسور .

وقد قال لي المدرب بعد تلك الأعوام : "إني سوف أدركك اليوم على الحركة الأخيرة ؛ تلك الحركة التي إن تعلمتها وأتقنتها فسوف تكون قادراً على قتل من يهاجمك ، فإياك أن تستعملها أبداً أبداً" ، وعندما سأله : "كيف تعلمني حركة قاتلة وتريد مني أن أتقنها ولا أستعملها لا في المشاجرات ولا حتى في المباريات داخل النادي؟" ، وهنا أجاب قائلاً : "أليست فلسطينياً ؟ ألا تريد تحرير بلدك؟" ، قلت : نعم ، قال : "إذا هناك في فلسطين وضد من احتلوا وطنك ؛ استعملها واستعمل كل ما تعلمته هنا" .



بعد ذلك بدأت مرحلة جديدة من حياتي ، فقد بدأت بالتدريب على السلاح ، هناك في الكويت في الصحراء ، أما الأهم من ذلك فهو ما كنت أعمله أثناء العطل المدرسية ؟ سواء عطلة نصف العام الدراسي أو عطلة نهاية العام الدراسي ، فلقد كنت أمضي تلك العطل منذ أن أصبح عمري اثني عشر عاماً ؟ يعني أصغر من عمرك الآن بعام واحد بالعمل في محل للأجهزة الكهربائية يملكه عمي أبو أحمد ، أو في العمل في كراج للميكانيك بعد أن كبرت بعدها أعوام ، فأنا يا ملاكي الحارس لم أمارس الرياضة القتالية حباً بها أبداً ، ولم أتعلم استعمال السلاح لأنني أهوى ذلك ، فلقد كانت هوايتي تفكير الأشياء وإعادة تركيبها مرة أخرى، ومحاولة معرفة طريقة عملها ، هذه هوايتي : الإلكترونيات والميكانيكا ، الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً ؛ والأشياء الكبيرة والتي يملؤها الزيت والشحوم ، وهذا ما دفعني لاحقاً إلى دراسة مساق الهندسة الإلكتروميكانيكية في كوريا الجنوبية ، أما كيف وصلت إلى هناك فهي قصة أرويها لك بعد أن أكمل حكايتي بالكويت أولاً.

كنت متعلقاً بالكويت جداً ، حتى أنه لما كان والدي ووالدتي وإخوتي يذهبون لقضاء العطلة الصيفية في الأردن كنت أفضل البقاء في الكويت وحيداً ، رغم أن عمري لم يكن يتجاوز الستة عشر عاماً لكي أبقى في علمي وهو هوايتي التي أحب ، وهنا أقول إن الكويت ليست الصحراء أو آبار النفط ، الكويت هي الحاضنة والمدرسة التي تعلمت منها كل شيء ، فلقد كنت أتابع مجلة "العربي" ؛ تلك المجلة التي عرفتني بالقضية الفلسطينية وحتى بالعالم أجمع ، وكانت أتابع الصحف ؛ وخاصة رسوم الفنان المبدع شديد الإبداع "ناجي العلي" ، الذي كان يرسم في الصحف الكويتية ؛ وعلى ما ذكر أنه كان يرسم في صحيفة "القبس" الكويتية ، ثم

"القبس الدولية" في لندن .

الكويت التي أنجبت فهد الأحمد الصباح الذي قاتل من أجل فلسطين في جبال عجلون في الأردن ، فالكويت هي البلد المسلم الوسطي ؛ لا المتطرف الأحمق ، فلقد تعلمت الصلاة وأداء العبادات منذ طفولتي الأولى ، كان والدي يصطحبني إلى الصلاة في المسجد كل يوم ، وحتى عندما كنت أتدرب ؛ كان التدريب يتوقف لأداء الصلاة ، وعندما كنت أعمل باليكانيك أو الإلكترونيات فلقد كنت أوقف العمل من أجل أداء الصلاة ، فالصلاحة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من أمري اليومية ، وأذكر أيضاً أن والدي كان يصطحبني لسماع خطبة الجمعة في إحدى المدن المجاورة لمنطقة الجهراء ؛ وذلك لحب والدي لخطب مشايخ الكويت .

كان والدي يردد دائماً أن صدام حسين فاجر ظالم ؛ ولذلك لم أكن أحب صدام حسين أبداً ، وخاصة عندما قرأت ما فعله بالأكراد ، وبحربه الحمقاء مع إيران ، وعندما غزا صدام الكويت ازداد كرهي له ؛ فهو محتل مثل الصهاينة اليهود لا أكثر ولا أقل ، احتل بلداً كان عوناً له؛ احتل وخراب ودمار وعاث فساداً ، وكم حمدت الله بعد أن تحررت الكويت !



بعد تحرير الكويت ، انتقلت مع أسرتي للعيش في العاصمة الأردنية عمان ؛ حيث كان والدي يملك هناك منزلًا ، ولكن مع انتقالنا بدأت مرحلة قصيرة لكنها مهمة جدًا ، فلقد كنا بعد خروجنا من الكويت إلى الأردن بحالة مادية صعبة جداً ، ولذلك ورغم أنني كنت أدرس ؛ إلا أنني كنت أعمل أيضًا في أحد كراجات المدينة لعلي أساهم ولو بالقليل من مصروف البيت ، فأنا يا ملاكي الحارس يا ابنتي الجميلة أكبر إخوتي مثلث تمامًا ، ولذلك تحولت هوايتي إلى عملي ؛ وحتى دراستي فلقد درست في مدرسة مهنية قسم الميكانيك ، وما أن انتهيت من دراسة الثانوية العامة حتى أدركت عدم قدرة والدي على تعليمي بالجامعة ؛ ولذلك قمت بالاستدانة من أحد أقاربي مبلغاً من المال ووعدته أن أعيد المبلغ خلال عام واحد ، ولقد قمت بافتتاح كراج خاص لي قبل أن أكمل عامي الثامن عشر !

عملت بجد دون كلل أو ملل ، لكن دونفائدة ؛ فلقد كانت الأردن تمر في تلك الفترة بأوضاع اقتصادية صعبة جداً ، وبعد مرور أكثر من ستة شهور ؛ ولم يحدث أي تقدم ، ومع اقتراب موعد سداد الدين ، وموعد إيجار الكراج وهو إيجار دفع مقدمًا لمدة عام كامل ، وجدت أن الأبواب قد أغلقت بوجهي بشكل كامل .

وفي تلك الفترة كنت قوي الجسد ؛ فأنا ما زلت أتدرب على الجودو بعمان بشكل منتظم عند نفس المدرب الذي كان يدربني في الكويت ، الكابتن "منير سميكة" ، فلقد ترك هو أيضًا الكويت ليستقر في الأردن وليدرب هناك في نادي مكة الرياضي ، ولقد كنت ميكانيكيًا فنياً إلكترونياً ماهرًا أيضًا ؛ فلقد مزجت الهواية بالدراسة لمدة عامين بالمدرسة الصناعية ، ورغم كل

ذلك ؛ أي القوة الجسدية وقوة المعرفة ، إلا أنني كنت لا أساوي شيئاً ، لا أساوي شيئاً ! وذلك لأنني كنت فقيراً ؛ فقيراً ومديوناً ، هل يعقل أن تتجاوز ديوني الخمسة آلاف دولار ولم يتتجاوز عمري الثامنة عشر بعد ! وهذه التجربة المريمة من العوز المالي وعدم القدرة على مساعدة والدي وإخوتي الصغار جعلتني أدرك أهمية المال .

ولذلك وقبل حلول موعد سداد الدين بعده أشهر قررت أن أهاجر ؛ أهاجر بعيداً لعلي أحصل على فرصة أفضل ؛ ولعلي أحسن ظروف المعيشية وأوفي بوادي الذي قطعه على نفسي وهو إعادة الدين في موعده المحدد ، وإعالة عائلتي التي لو لا ذلك المنزل الذي كنا نملكه في عمان لكننا قد تشردنا في الطرقات ، فوالدي كان كبير السن ؛ فلقد تزوج في سن متاخرة ، وإن خوتي بدؤوا يكبرون ويكبر مصروفهم ومصروف البيت .

قدر الله لي في تلك الفترة أن يكون لي صديق اسمه "أحمد" ، له قريب يعمل في كوريا الجنوبية ، وكان صديقي هذا قد قرر السفر للعمل هناك عند قريبه ، وهنا طلب مني أحمد أن أملأ له طلباً لتأشيرة الفيزا ، فهو لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية ولا حتى العربية ، فأحمد لم يكمل تعليمه ، ولذلك قمت بملء طلب الفيزا لأحمد ؛ وطلب آخر لي أنا ، وما إن جاءت الموافقة على الفيزا حتى قمت ببيع موجودات الكراج وشراء تذكرة للسفر ، وعندما أخبرت أحمد أنني أريد السفر معه لكوريا ؛ فرحب بذلك أشد ترحيب وذلك لعدة أسباب ذكرها هو لي عندما صعدنا إلى الطائرة فلقد قال : " أنت يا عبد الله قوي الجسد ويدك "طرشا" فإذا حدثت معنا مشكلة تحتاج للعضلات فأنت موجود ، وإذا احتجنا لمترجم فأنت موجود " ، أما الأهم

حسب رأي أحمد فهو قوله : " إذا ما تعطلت الطائرة في الجو فأنت موجود أيضاً كي تصلحها " ولقد كان جاداً في ذلك !

قبل موعد السفر بيوم واحد أبلغت والدي عن نيتها للسفر إلى كوريا هناك ، لم يعترض بل بارك سفري وشجعني على الثبات والعمل الجاد ، فلقد كان والدي يثق بي جداً ويعلم أنني لست من النوع المستهتر ، فوالدي كان يتبع عملي في الكراج وتدربي في النادي ، كان يراقب ويتابع صامتاً ، ويكرر تلك الكلمة التي يرددتها دائماً : " لقد كبرت قبل أوانك يا ابني " .

ودعت أهلي وانطلقت إلى المطار مع أحمد وأنا لا أحمل معي سوى تذكرة السفر فقط لا غير ؛ فلقد دفع أحمد أجراً التاكسي ورسوم الخروج من المطار ، أحمد كان قد خطب ابنته عمنته قبل عامين من سفرنا فهو أكبر مني عمراً ، لكنه رغم كبر عمره إلا أنه كان منسجماً معى وكان إنساناً طيباً وبسيطاً جداً .

ما إن أقلعت الطائرة من مطار عمان حتى قال لي أنه يريد العودة إلى عمان مرة أخرى ! لقد تبدل حماسه الكبير إلى فتور وتشاؤم ! حاولت أن أغير رأيه لكنه أصرّ على العودة إلى عمان رغم أنه تحدى أهله وأهل خطيبته الذين كانوا يرفضون سفره ، ورغم كل الإصرار إلا أن ذلك الإصرار تحول إلى إصرار معاكس مُصرّاً على العودة وعدم السفر ، وما إن وصلت الطائرة إلى كوريا بعد مرورها بالبحرين وهو نع كونغ ، حتى أصرّ بكل ما أوتي من قوّة على العودة !

حاولت أن أحجز له تذكرة لكي يعود ؛ إلا أنني لم أجد طائرة تسافر في ذلك اليوم ، فانتظرنا في المطار يومين حتى حجزت له تذكرة وأوصلته لبوابة المغادرين ليغادر عائداً إلى

عمّان دون أن يرى كوريا ! غادر هو تاركاً لي عنوان قريبه في كوريا ، وودعه أنا بعد أن قمت بعمل جنوني ؟ نعم يا ملاكي الحارس ، فلقد أرسلت مع أحمد جواز سفري وتذكرة عودتي إلى عمان ؛ وأرسلت معه رسالة قلت فيها لوالدي أني لن أعود قبل أن أحقق ما حلم بتحقيقه ، وطلبت من أحمد إيصال الأمانة ؛ وأن يطلب من والدي الدعاء لي والاحتفاظ بجواز سفري حتى أطلبه منه !

جيوبى خالية ، فلا مال لدى ؛ ولا تذكرة للعودة ؛ ولا جواز سفر ، كل ما معى هو عنوان
مكتوب على ورقة ، وإصرار بالنجاح ورغبة بالتحدي !

هنا يجب أن أقول أن أحمد قد عاد إلى عُمان لأنّه كما قال لي عبر الهاتف فيما بعد أن عمته أي حماته قد عملت له عملاً عند إحدى الساحرات ، عملاً يمنع أحمد من السفر بعيداً عن خطيبته ؛ بعيداً عن بيته في عُمان ، أما أنا فإن سئلتُ عن رأيي فأقول الله أعلم بالسبب الحقيقي لعودة صديقي أحمد إلى عُمان !



عدت إلى جيوبى الفارغة وأخرجت منها العنوان ، وسألت أحد موظفي الاستعلامات بالمطار ، ذلك الموظف الذى رسم لي العنوان على إحدى الخرائط الخاصة بالسياح ؛ فلقد قلت له أنى أريد الذهاب ماشياً على قدمي فرسم لي العنوان وانطلقت بعد أن أمضيت ليلتي نائماً بحديقة المطار ؛ نائماً على العشب الرطب مستيقظاً على بخاخات المياه التي سقطت العشب صباحاً ، فاستيقظت وشربت من تلك المياه ، وبدأت رحلتى إلى الأمل ، الحلم الذى أصبح حقيقة .

بقيت طوال ثلاثة أيام وليلتين أسير في النهار وأنام في الليل ، لا أكل ولا أشرب ، لكنني كنت أشرب من مياه الحدائق العامة حتى وصلت إلى العنوان ، ووصلت متعباً غارقاً بمياه الأمطار ، أشعر بالحر تارةً وبالبرد تارةً أخرى ، وصلت إلى العنوان الذي لم يكن سوى عنوان مصنع لقص الأشجار في إحدى الغابات ، كان قريب أحمد قد ترك العمل بالمصنع منذ مدة طويلة وانتقل إلى مكان آخر ؛ ولكن لحسن الحظ أنه كان هناك عمال أجانب يعني عمال غير كوريين ، عمال باكستانيون مسلمون .

رحب بي أحدهم ، وأوجد لي عملاً في نفس اليوم بمصنع مجاور ، هناك في تلك الغابة وبمصنع الأخشاب هذا عملت طوال خمسة وأربعين يوماً ، قبل أن أستلم أول راتب لي ؛ فلقد كان النظام هناك أن نعمل شهراً كاملاً وأن نترك تأميناً لمدة خمسة عشر يوماً لدى المصنع .

عملت وأنا لا أملك المال لشراء الطعام ، فلقد كنت أتناول وجبة تُقدم من المصنع في الساعة العاشرة وهي وجبة خفيفة جداً ، ووجبة أخرى تُقدم في ساعة الظهيرة للغداء ، عملت

بصمت وأتقنت ما أعمل.

كنت أدوّن الكلمات الكورية وأحفظ معانيها ؛ ولم أكن أملك المال لشراء القاموس ، لكنني كنت أمتلك شيئاً آخر ، فلقد كنت أنام تلك الفترة في إحدى الغرف الملحقة بالمصنع ، وكانت بعد انتهاء العمل أحاول اقتحام جهاز الكمبيوتر الموجود في غرفة الاستقبال ؛ وبعد محاولات طويلة استطعت اقتحام ذلك الكمبيوتر ومعرفة كلمة المرور ، وبدأت من خلال ذلك الجهاز بتعلم اللغة الكورية عبر أحد مواقع الجامعات الكورية ، فأنا أجيد اللغة الإنجليزية بشكل جيد جداً ، وذلك سهّل عليّ تعلم اللغة الكورية عبر اللغة الإنجليزية !!

كنت بعد ذلك أجول بحرية في الشبكة العنكبوتية التي كانت في تلك الفترة ؛ أي عام ١٩٩١ ما تزال صغيرة جداً ومحدودة أيضاً ، وأعتقد أن ذلك كان هو الدافع بالإضافة إلى الملل لكي أبدأ باقتحام المواقع الالكترونية ؛ ولكنني لم أكتف بذلك أيضاً ، فلقد كنت بعد مرور ما يقارب الثلاثين يوماً على وصولي إلى كوريا وعلى عملي في المصنع ، قد اشتقت للاتصال بوالدتي ووالدي للاطمئنان عليهما وخاصة بعد عودة أحمد .

ولأنني لا أملك المال اللازم لشراء كرت هاتف الاتصال ؛ فلقد قررت أن أقتحم شبكة الاتصالات الكورية ، وخلال خمسة أو ستة أيام تمكنت من فك شيفرة الاتصالات الكورية ، فأصبحت أجري المكالمات الهاتفية بشكل مجاني طوال فترة تواجدي بكوريا ؛ أي طوال ستة أعوام ، حتى عندما تحولت الشركة إلى النظام الرقمي بدل النظام السابق ؛ استطعت أن أفك تلك الشيفرة أيضاً ، ولم أكتف بذلك بل قمت بفك شيفرة الهواتف الجوالات ؛ وهنا تحولت

الحاجة للهال إلى سبب دخولي عالماً جديداً عليّ وهو عالم (قرصنة الكمبيوتر) ؛ "الهاكرز" .

بعد أن أتممت خمسة وأربعين يوماً تسلمت راتبي وكان كبيراً جداً يعادل راتب ثمانين موظفين يعملون في الأردن ؛ إلا أنني لم أصرف من ذلك المبلغ سوى القليل جداً على شراء بعض الطعام والملابس واحتفظت بالباقي ، وما إن جاء الشهر الثاني والراتب الثاني حتى كنت قد جمعت مبلغ الخمسة آلاف دولار ، وقمت على الفور بإرسالها إلى والدي مع مبلغ آخر مصروفًا للعائلة ، وهنا سددت ديوني وبدأت أرسل كل ما بقي معي من مال إلى والدي ، مما جعل وضع عائلتي يتحسن بشكل كبير جداً بحمد الله .

وهنا أقول الحمد لله ، لأنني طوال فترة وجودي في كوريا كنت أحافظ على صلاتي وصومي وعبادتي بفضل الله عز وجل ، وكانت أيضاً أحافظ على إبقاء لياقتي البدنية على أحسن حال من خلال التدريب المكثف الذي كنت أمارسه بعد صلاة الفجر بشكل يومي لحين موعد العمل .

بعد عدة أشهر على هذا الحال قررت ترك العمل في قص الأشجار والمنجرة ، والتوجه للعمل بمكان أمارس فيه هوايتي أي الميكانيك ، فعملت بمصنع للصناعات البلاستيكية ، وبعد فترة أصبحت عاملاً وميكانيكيًّا لآلات في المصنع .

أما في أوقات ما بعد العصر فلقد أردت أن أكمل هذه الهواية في أوقات ما بعد الدراسة ، فقمت بالتسجيل في أحد معاهد الهندسة ودرست تخصص الالكتروميكنيكا؛ أي الالكترونيات والميكانيك .

وهنا يا ابتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس أقول لك أني كما يقال لك لم أكن أملك قلباً أبداً
أبداً ، بل كنت أملك عقلين اثنين : عقل يتقن جمع المال ، وعقل آخر منصبٌ على تحدي
القانون ، فلقد أصبحت قرصان كمبيوتر وقرصان شبكات الاتصالات ، ولكن الأهم هو ذلك
العقل الذي خصصته لفلسطين ، فلقد تعلمت علم المتفجرات والعبوات الناسفة ؛ تعلمت ذلك
من مصادره الأصلية ؛ من المواقع العسكرية الموجودة في شبكة الإنترنت ، فتعلمت الكثير
وتحولت تلك المعرفة إلى خبرة عملية ، فلقد كنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع في كوريا هناك في
الغابات ؛ تارةً أفجرّ عبوة وتارةً أجرب مادة حارقة جديدة ، وهنا استطعت أن أدمج ما بين
صناعة المواد المتفجرة وصناعة المواد الإلكترونية اللازمة لتفجير تلك المواد ، فأصبحت
خبيراً بكلتا الناحيتين ، فأنا من يصنع المواد المتفجرة وأنا أيضاً من يصنع الأدوات الإلكترونية
الخاصة بها .

كان ذلك صعباً جداً ومعقداً جداً ؛ لكنني كنت أحبه جداً ، فهو أصبح هوايتي في بلاد
الغربة كوريا، أما رياضة الجودو فقد تطورت معه هي الأخرى؛ فلقد بدأت أتدرب بناءً خاص،
ومزجت تدريسي على الجودو بالتدريب على التايكوندو ، فالكوريون لا يحبون رياضة الجودو
لأنهم بشكل عام لا يحبون اليابانيين ، فالجودو رياضة يابانية ، واليابان كانت قد احتلت كوريا
لفتره طويلاً جداً ، ولذلك فالكوريون لا يحبون أي شيء يأتي من اليابان منها كان ؛ حتى الرياضة،
حتى الجودو حبيبي لم يكونوا يحبونها فلذلك تعلم التايكوندو ؛ فهي رياضة كورية أصلية ،
فتعلمتها وبخاصة تلك المراحل الخاصة بقتال الشوارع ؛ أو ما يعرف بقتال القوات العسكرية
الخاصة ، وبدأت بالتردد على النوادي المختصة بموضوع القنص على السلاح ، ورغم أنها

مكلفة جداً إلا أنني استفدت منها بشكل جيد جداً.

وهنا يا ابتي أكملت الحلقة بشكل كامل من العبوات المتفجرة إلى القنص إلى قتال التايكواندو ؛ قتال القوات الخاصة ، أما إن سألتني عن دافعي لذلك كله فأقول لك أن الدافع كان جدتك ؛ أمي ، ففي تلك الفترة كانت الانتفاضة قد شارفت على الانتهاء (انتفاضة الحجارة) ، وكان بلال ابن عمي الذي تربى معي في الكويت قد سافر مع أهله إلى فلسطين ؛ فقد كان يملك هوية فلسطينية ، أما أنا وأهلي فلم نكن نملك تلك الهوية ولذلك بقينا في عمان .

في فلسطين أصيّب بلال ابن عمي وصديقي والناشط بكتائب عز الدين القسام ، أصيّب برصاصة في بطنه أفقدته إحدى كلتيه ، مكث على إثرها في المستشفى فترة طويلة جداً ، ولأن الاتصالات كانت مقطوعة بين الدول العربية وبين فلسطين المحتلة فلقد كنت حلقة الوصل بين أبناء عائلة البرغوثي وبخاصة أمي ؛ وأعمامي بعمان ، وبين فلسطين المحتلة ، ولذلك كنت أتابع أخبار بلال المصاب الذي كاد أن يستشهد وكدت أن أفتح له بيت عرس للشهادة في كوريا ، بلال كان قد فقد ابن عمه وعمه شهداً في بداية الانتفاضة الأولى ،وها أنا أكاد أفقده في نهاية نفس الانتفاضة ، فكان ذلك هو دافعي الذي حولني أول مرة من طفل إلى شاب مصمم على مقاومة الاحتلال ، وهو أيضاً ما دفعني بعد ذلك لأن أصبح رجلاً لا هدف له سوى مقاومة ذلك الاحتلال ، فالاحتلال هو سبب تشرد عائلتي ، وهو أيضاً سبب فكري ، فلو كنت أحياناً في فلسطين لما كنت مشرداً فقيراً لاجئاً أو نازحاً في إحدى مخيمات الشتات .



وهنا لا أتحدث عني أنا عبد الله البرغوثي ؛ بل عن كل فلسطيني تشرد وعاش مأساة المجتمعات بالشتات وبالغربة ، كان كرهي للاحتلال يكبر ويكبر ، فلقد تركت العمل بمصنع البلاستيك وأصبحت أعمل مترجمًا للغة الكورية بإحدى السفارات العربية ، وأصبحتأتاجر بالسيارات المستعملة عبر تصديرها للأردن واليمن ، أصبحت ثرياً وأصبح لي عقلان ؛ لكنني بلا قلب ، قلب يحب ويعشق ؛ رغم أن الفتيات كنَّ يطاردنِي ، وكُنَّ يسببنَ لي الحرج الشديد ، وذلك لأنني كنت أصدهنَّ عنِي بشتى الوسائل والسبل ، والله إن صدَّ الفتاة أصعب ألف مرة من استمالتها .

ولذلك قررت أن أتزوج ، أتزوج بلا حب وبلا مشاعر ، فتزوجت فتاة كورية كانت تدرس الآداب والفنون الجميلة ، تزوجتها وبقيتُ على حالِي أعمل وأتدرُّب على هواياتي التي أحب ؛ هواياتي التي أقسمت أن تكون وسليطي لتحرير بلادي ؛ لتحرير القدس والأقصى ؛ لتحرير الإنسان من جبروت الاحتلال .

لم يشأ الله أن تبقى الأمور على حالها فلقد اندلعت مواجهات بين طلبة جامعة سيدوول وبين قوات الشرطة الكورية على خلفية اغتصاب عدد من الجنود الأميركيين فتاةً كورية ، فشاركت بتلك الصدامات وبدأت بإلقاء قنابل المولوتوف الحارقة ، فاعتقلت ؛ ولو لا تدخل السفير اليمني لما خرجت من المعتقل ، وتم إبعادي إلى الأردن مكبلاً بالقيود ، لقد بقىت طوال الرحلة مكبل اليدين والقدمين حتى وصلت إلى عمان .

ولقد كانت زوجتي الكورية "مي سن أوكي" أسميتها أنا "إسراء" قد وصلت قبلى إلى

عمّان ، وتم الحجز على ما كنت أملكه من مال في البنوك الكورية ما يقارب العامين ، ولذلك فرغم ما أملكه من مال في البنك إلا أنني عدت فقيراً مرة أخرى ، عدت بلا مال كما سافرت !

يشهد الله أنني وصلت إلى عمّان ولم يكن معي قرش واحد ، هناك كان صديقي "أحمد شوياش" يتظرني مع زوجتي والدتي ليأخذني بسيارته إلى منزل أهلي ، أحمد كان قد تزوج وأنجب عدة أطفال ، أما أنا فلم تكن زوجتي "مي سن" قد أنجبت ، فلقد كانت تعاني من مشكلة في الإنجاب ، وبعد عدة أعوام من المحاولة في كوريا وفي عمّان استمرت ستة أعوام وبسبب الضغوط الكبيرة التي مورست عليّ من قبل من هم حولي باستثناء أمي وأبي ؛ فهما لم يضغطوا عليّ أبداً أبداً في هذا الموضوع ، أما حالاتي فلم يقتصر بالضغط عليّ وحتى بالضغط على أمي .

بعد مرور عامين استطعت عن طريق السفارة الكورية في عمّان أن أحصل على كل ما كنت أملكه في كوريا من أموال ؛ وأن أبدأ عدة أعمال ناجحة في عمّان ؛ فاستطعت أن أمتلك مسكنى الخاص و سيارة ، و كنت في تلك الفترة أحيا وأعيش ببحبوحة كاملة ، مما كثف الضغوط علي لإيجاد حل لمشكلة عدم إنجاب زوجتي ، فقررت أن أتزوج عليها ، ويشهد الله أنني لم أقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن عجزت عن إيجاد علاج لها ، فلقد كنت محتاجاً إلى الأبناء والبنات ليكملوا فرحتي .

في تلك الفترة كنت قد تجاوزت الخامسة والعشرين ، حاولت أن أقنع "مي سن" إلا أنها رفضت ذلك بشكل قاطع ؛ وكانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة طوال فترة زواجنا التي

امتدت ما يقارب ستة أعوام لا ترفض لي طلباً رغم تفهمها للأسباب ، إلا أنها رفضت ! ف "مي سن" كانت تعتبرني جزءاً منها لا يمكنها الاستغناء عني أبداً ، فعندما كنت أتدرُّب في النادي كانت ترافقني إلى النادي وتجلس على أحد المقاعد صامتة وترافقني ، كانت دائماً حولي ومعي تدع لي أفضل وأجود الطعام ، تسهر على راحتني وترعايني وكأنني ابنها أو أبوها الكبير ، كانت تحبني ؛ نعم كانت تحبني جداً ؛ بل تحبني أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا ، فلقد قالت لي كيف أستطيع أن أقسم دنياي مع زوجة أخرى ، أما أنا فلا أدرى إن كنت أحبها ، فكما قلتُ ؛ لم أكن أملك قلباً أصلاً لأحب ، لكنني تعودت عليها وتعودت على وجودها في حياتي ، فهي زوجة صالحة هادئة مطيبة ، وأنا لم أقصر معها بأي شيء طوال فترة زواجنا ، فهي كانت ترى أنه لا يوجد أي اهتمام عندي بالنساء ، فكل اهتمامي محصور بالعمل والتدريب ، السر الوحيد الذي كنت أخفيه عنها هو هوايتي بصناعة العبوات الناسفة ، فتلك الهوائية كانت سرية جداً ، كانت سرًا مقدسًا لم أشرك به أحداً طوال تلك الفترة .

هي رفضت أن أتزوج عليها وأنا أصررت ؛ فانفصلنا ، وكان هذا الانفصال غريباً ؛ غريباً جداً ؛ انفصلنا كأصدقاء ! حتى أني ذهبت إلى أحد محلات المجوهرات واشترت لها عدة أطقم من الذهب ومن الملابس ومن الهدايا لوالدتها ووالدها ، وأوصلتها إلى المطار مودعاً إياها حزيناً على الفراق ، بقيت على هذا الحال عدة أشهر لا أكلم أحداً ولا أطيق أحداً ، أمضي وقتى في العمل ؛ العمل ولا شيء سوى العمل ؛ حتى فلسطين ! لم أكن بشوق لها ! بل لم أكن أبالى بأخبارها أبداً ! أما سبب ذلك فهو دخول سلطة الفساد والإفساد سلطة أوسلو ، تلك السلطة التي تضم مجموعةً من الفاسدين القدرين المرتشين ، أولئك اللصوص الذين لم يكتفوا بأن

سرقوا مال الثورة والثوار ؛ بل سرقوا دماء شهداء الانتفاضة الأولى ؛ انتفاضة الحجارة ، فباعوا دماء الشهداء من أجل أن يعودوا بفسادهم إلى فلسطين ، يعودوا ليدنسوها .

صبت اهتمامي على أعمالي وتجارتي التي بدأت تكبر ؛ فأصبحت لا أدخل بيتي إلا من أجل النوم ، فكل وقتني في العمل طوال أيام الأسبوع السبع ، كنت حزيناً بل تائهاً نوعاً ما ؛ تائهاً لأنني لا أعلم ماذا أفعل بموضوع الزواج ، فأنا كنت أعيش حياة سعيدة جداً مع زوجتي السابقة، رغم عدم حبي لها ، كنت أرى من هم حولي من أخوال وأعمام وأصدقاء ؛ لم لا يعيش أحد منهم بمثل تلك السعادة التي عشتها ؟! بل إن كثيراً منهم كانوا تعساء ! رغم أن عندهم الكثير من الأولاد ! فلقد كنت أخشى أن أتزوج فأصبح واحداً مثلهم ، أخشى أن تصبح زوجتي هي القيد الذي يقيدني ، ولذلك قررت أن أسافر إلى إسبانيا ؛ برشلونة تحديداً ، حيث يعيش ابن خالي وهو يحمل الجنسية الإسبانية ، وهو أيضاً صديق ورفيق لي .



في تلك الفترة بدأت بإعداد الأوراق الالزمة للسفر، وبدأت أهني أعمالي في الأردن ، حتى جاءت العاصفة ؛ بل حتى التسونامي الذي لا يمكن لأحد الصمود بوجهه ؛ إنها أمي ؛ أمي الهدأة الطيبة الحنونة التي تبكي إذا ما شاهدت مشهداً حزيناً على التلفاز ! أمي أصبحت عاصفة هوجاء بكل ما تحمل الكلمة من معنى !

فقد علمت عن طريق الصدفة من زوجة خالي أني أرتب للسفر عند ابنها في إسبانيا ، فجن جنونها ، فذهبت إلى منزلي الذي لم تكن قد دخلته منذ طلاقي للكورية فوجئت أن منزلي على حاله لم يتغير عليه شيء أبداً ، صور الكورية تملأ المنزل ؛ وملابسها أو ما بقي من تلك الملابس تملأ الخزائن ، وجدت كل شيء على حاله ، وكنت بعملي فاراً من تلك الذكريات ، وهنا قامت العاصفة ! فبدأت أمي بجمع كل ما يمت للكورية بصلة ؛ الصور الملابس وحتى الطعام الكوري ؛ البهارات الكورية ؛ الكتب الكورية ؛ وأشرطة الفيديو الكورية والأجنبية ؛ حتى ألبوم صور الزواج ، جمعت كل ذلك في أكياس وألقتها في القمامنة !

عدت بعد منتصف الليل لأجد أمي تنتظرني في البيت ؛ البيت الذي لم أعرفه عندما دخلته فلقد حولته إلى بيت فلسطيني أصيل ، تملأ الجدران صور القدس وخرائط فلسطين الخشبية ، تلك الخرائط الخشبية التي كنت أصنعها قبل أن أسافر إلى كوريا ، فلقد كنت بعد عودتي من الدراسة والعمل أدخل إلى غرفتي لأصنع مجسمات تجسد القدس وتجسد خارطة فلسطين ؛ وكنت أوزع تلك المجسمات على منازل أخواتي وأعمامي وأصدقائي ، لم تكن جميلة ولكنها كانت فلسطين أصيلة ؛ تصنع من خشب الزيتون ويصنعها عاشق لفلسطين ، ومحب

ل القدس .

نظرت حولي فلم أجد الماضي القريب ؛ لم أجد كوريا ، بل وجدت الماضي البعيد فلسطين ، وجدتها معلقة على جدران منزلي ، لكنني لم أجد نفسي ، لم أجد عبد الله الجمل ، حتى بدلة الجodo الخاصة بي لم أجدها ، فقد استعملتها أمي كمسحة ووضعها على الباب الخارجي ! وعندما سألتها قالت لي : " إنها قديمة جداً ، اشتري غيرها ، بل لا تشتري غيرها ، اسمع يا عبد الله ، أقسم بالله العظيم أنني سوف أغضب عليك ولن أرضي أبداً ، وليشهد ربى عليّ إن لم تمتلك عن السفر وإن لم تتزوج فوراً فسأغضب عليك ، قل لي الآن ما هي مواصفات الزوجة التي تناسبك ؟ قل ولا تخش ، اذكر مواصفاتها وأنا سوف أجدها لك ، كل ما عليك أن تقول وأن تنسى الكورية ، فأنا أيضاً كنت أحب الكورية ، فلقد كانت بمثابة ابنة لي ، كانت طيبة وحنونة ، لكن هذا قدرها ، قل لي يا ولدي ما هي مواصفات ولا توجع قلبي " .

كنت أعلم أن قلب أمي مريض ؛ بل مريض جداً ، فلقد أجرت قبل فترة عملية قلبية ، أمي التي تقول أنها سوف تغضب عليّ إن لم تمتلك عن السفر وإن لم تتزوج !! آه يا أمي ، أليس الجنة تحت قدميك ؟ ! فكيف سوف أقبل لنفسي أن أغضبك ؟ ! أماه لا تغضبي مني ، أماه لا تغضبي علي ، فأنا المطيع فارضي عليّ ، وارضي على ما قدمته يداي .

صمت قليلاً وقلت : " حسناً لن أسافر " ، فنظرت إليّ وقالت : " ماذا عن الزواج ؟ " ، قلت : " نؤجله قليلاً حتى .. " ، قالت : " حتى ماذا ؟ حتى تنسى يا ولدي ؟ لا يناسبك إلا الزواج " ، قلت : " حسناً ، لكن حسب شروطي ، أولاً : أريدها من هناك ؛ من فلسطين ، ثانياً :

أريدها من عائلتنا ؛ برغوثية أباً عن جد ، ثالثاً : أريدها متعلمة في مجال تربية الأطفال ، فأنا لا خبرة لي ولا جلد عندي على الأطفال ، رابعاً : لا أريدها أن تعمل ، فأنا والأطفال سنكون عملها وشغلها الشاغل ، خامساً وهو الأهم : أريد من أبيها أن يكون هو رجل المنزل لا أمها ، فأنا لا أريد زوجة قوية تحول حياتي إلى جحيم من المشاكل ؛ والسلام خاتم " !

نظرت لي أمي وقالت : "شقراء .. بيضاء .. طويلة .. ممتلئة .. جميلة ، ألا يوجد شيء من ذلك؟!" ، فضحت وقلت : "لا أبداً أبداً ، فأنا يا أمي كنت حزيناً في بداية طلاقي للكورية على الكورية، ولكن فيما بعد أصبحت حزيناً على نفس الأشياء، أخاف أن لا أجده فتاة مثلها".

وهذا هو سبب رغبتي بالسفر للخارج حتى أتعرف على فتاة أعرفها وأفهمها ثم أتزوجها ، أما هنا بعمان فهذا صعب علي ؛ أو بالأحرى أنا لا أريده ، فلم أجده في عمّان من تنسابني بعد الكورية .

تركتني والدتي وعادت إلى المنزل ، والدي لم يكن هناك بل كان في فلسطين ، فلقد قرر والدي منذ مدة أن يزور فلسطين لرؤيه الأهل والأقارب ، ولكنه بعد ذلك قرر أن يطيل زيارته لفلسطين لرعايه أراضيه التي ورثها عن جدي .

ولا أدري أكان وجود والدي في فلسطين في تلك الفترة من سوء حظي أو من حسنه ، فبمجرد أن اتصلت أمي بأبي في تلك الليلة حتى وجدت أمي تقف على رأسى في الصباح الباكر لتوقظني وتقول لي أنها وجدت لي العروس المناسبة ! بالله يا أمي ! خلال أقل من خمس أو ست ساعات وجدت عروساً بمواصفاتي التي كنت أظن أنها تعجيزية ؟ ! فلقد تركت أمي متزلي

الساعة الثانية ليلاً وعادت إلى الساعة السابعة صباحاً ، فمنزلني ومنزل والدي في نفس العمارة ، أمي وجدت لي عروساً ، قلت : "حسناً" ، قالت : "أعطني جواز سفرك واذهب به لتحصل على فيزا لكي تتسافر إلى فلسطين" .

قلت وما زال النعاس يطاردني : "أتريدن جواز السفر أم ماذا؟" ، قالت : "لا أريد جواز السفر ، أريد أن تذهب الآن لتحصل على فيزا وتتسافر إلى العروس ، هناك في فلسطين" .

بالله سوف أذهب لفلسطين التي لم أعد أحبها ! ألم أقل في إحدى الأيام عندما سئلت عن حال فلسطين بعد دخول السلطة :

معتوهه مجنونه تلك البلاد
ظلم قتل وبيوت الحداد
قتلوا الأم والطفل الوليد
عاثوا بها خراباً واستبداً

هذه فلسطين التي لا أحب ، فلسطين التي لا أريد ، كيف أذهب لفلسطين التي ما عدت أحب ، لكي أبحث عن فتاة أحب !! أعني يا الله ..

ما هي إلا عدة أيام حتى حصلت على تأشيرة للزيارة ، ودّعت أمي وقلت لها أني ذاهب في رحلة مع أصدقائي وبعد عودتي سوف أذهب إلى فلسطين ، لم أذهب برحمة خارج فلسطين ، بل ذهبت برحمة إلى فلسطين ، فلقد كان لي صديق ، وهو تاجر مقدس ثري انتظري هناك على المعبر ، أو كما يسمونه على الجسر ، عبرت الجسر إلى فلسطين ، لكنني لم أر فلسطين بل رأيت أعلام الصهاينة تملأ أرجاء المكان ، وصلت متأخراً رغم أنني خرجت مبكراً ؛ فلقد استوقفني المحتلون ليخضعونني للاستجواب عن أحوالى وعن ماذا كنت أعمل ، وبخاصة أنها أول زيارة

لي لفلسطين ، كانوا يتحدثون معنوي باللغة العربية المكسرة نوعاً ما ، فرفضت أن أجيب بالعربية ، وبدأت أتحدث بالإنجليزية مما جعلهم يحضرن مترجمأً للغة الإنجليزية ، ألا يكفي أنهم احتلوا أرضي وقدسي ويريدون أن يحتلوا لغتي؟ سوف أتحدث لكم بلغة ذلك الوغد الحقير بلفور الذي مكنكم عبر وعده المشؤوم من الحصول على أرضنا المباركة ، لكنه لن يمكنكم من الحصول على لغتي ، حتى أن المترجم حاول أن يتحدث باللغة العربية إلا أنني لم أنطق حرفاً واحداً بتلك اللغة وقلت له : "إن كانت اللغة الإنجليزية صعبة عليك ، ابحث عن مترجم للغة الكورية" ، غضب هو ، أما أنا فلم أغضب بل كنت سعيداً وسعیداً جداً لأنني أغضبته ، فلقد شعر بالإهانة ، أمضيت عدة ساعات حتى جاء المساء ؛ وعندما وبدون مقدمات أعطوني جواز سفرى وقالوا لي : "اعبر" ، فعبرت إلى فلسطين .

قال لي صديقي : "مرحباً لقد تأخرت ، حصل خير ، شو رأيك تروح على فيلتنا التي بأريحا فهي قرية جداً ؟ خمس دقائق من هنا" ، لم أتكلم واكتفيت بهز رأسى بالموافقة .

فيلا جميلة جداً ، وسبح كبير وأشجار فاكهة رائعة ، هناك أمضيت ليالي الأولى في أريحا ، أريحا وأي أريحا رأيت ، طلبت من صديقي أن يصطحبني بجولة داخل مدينة أريحا ، أريحا "عزوة أوسلو" ! رأيت فيها قرية مهجورة محرومة من الحداثة ؛ قرية لا أكثر ، فلم تكن أريحا مدينة أبداً ، رأيت فيها قطعاً من عساكر سلطة أوسلو ، قطعاً يقوده ذئب !

بعد ذلك عدنا إلى الفيلا فطلب مني صديقي أن أغير ملابسي وأن أرتدي أجملها ، بل أغلاها ثمناً ، قبل أن أسأله عن السبب قال : "إياك أن تسأل ، بالله عليك يا عبد الله أن تفعل ما

"أطلبه منك" ، فعلاً ما هي إلا عدة دقائق و كنت أرتدي إحدى بدلي ، تلك البدل التي كنت أفصلها هناك في كوريا ، وبعد أن لم أكن أملك ثمن الطعام والمواصلات عندما وصلت إلى كوريا ؛ عندما مشيت من المطار إلى غابة الأشجار ، أصبحت ثرياً أقوم بتفصيل بدلاتي وقمصاني ، حتى أني والله كنت أفضل تلك "البلايز" التي ترتدى تحت القمصان ، كنت أفضل ربطة العنق من الحرير الصيني الفاخر .

ارتديت إحدى تلك البدل وصعدت سيارة صديقي ؛ تلك السيارة التي لا يقل ثمنها عن نصف مليون ، صعدت وصعد هو أيضاً ، فقد السيارة عدة دقائق ، وصلنا إلى فندق فخم جداً جداً ، في البداية لم أصدق مثل وجود هذا الفندق في مدينة أريحا ؛ أقصد في قرية أريحا ، لكن الفندق كان ضخماً وفخماً ، وبما أني أحمل جواز سفر أجنبي ؛ وبما أن صديقي يملك هوية مقدسية فلقد دخلنا هناك دخول الفاتحين ، وما هي إلا عدة دقائق حتى علمت أنني في كازينو أريحا !! في ملهي ليلي ومرتع للقمار والفساد ! رأيت ذلك بأم عيني ، كازينو في أريحا ! قمة الفساد والإفساد في أول مدينة تسيطر عليها السلطة !!

قلت في نفسي حسبي الله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، قلت الحمد لله أن ذلك الكاتب الفلسطيني "مريد البرغوثي" الذي كتب كتاب (رأيت رام الله) لم يدخل إلى هنا ، لم يشاهد ما شاهدته في ذلك الوكر ، لم يكن القمار ولا العاهرات ؛ إنما العاهرون رجال جهاز الأمن الوقائي ؛ رجال جبريل الرجوب الذين يتولون حراسة الكازينو والإشراف الأمني عليه ، فلقد كلف عرفات بطل الأبطال جبريل الرجوب بتشكيل جهاز تحت اسم "جهاز الأمن الوقائي" ، لا

اختصاص له سوى حماية الصهاینة من المقاومة وحماية الفاسدين من التأثیرين !

ظن صديقي أني لن أطيل السهر هناك ، ولكنه كان مخطئاً فلقد أطلتُ السهر ، ليس بلعب القمار ؟ ولا مراقصة العاهرات ، وإنما واصلت السهر موجهاً لصديقي السؤال تلو السؤال عما يدور هنا في الكازينو وهناك في رام الله وغزة .

قبل الفجر عدنا إلى الفيلا ، فوضعت حقائبی في السيارة وانطلقنا لنصلی في الأقصى ، انطلقنا من الكازينو وكر فساد السلطة إلى القدس المحتلة ، ما إن وصلت هناك حتى عادت لي روحي وعادت الحياة تدب في جسدي من جديد أصبحت حياً ؛ حياً أرْزَق ، في القدس عادت لي ذاكرتي وحبي لفلسطين ورغبتي في القتال وعقاب المحتل .

هناك يا ابنتي الحبيبة هناك يا ملاكي الحراس ، شعرت برغبة بالحياة ، ليس للقدس وصف؛ راحتها جميلة ، فلقد مررنا على مخبز يصنع الكعك المقدس ، فاشترينا وأكلنا بينما كنا نتجول في أزقة القدس ، بعد أن عبرنا أسوارها أكلت الكعك ؛ فلقد كنت جائعاً فلم آكل هناك في وكر الفساد بالказينو ، ولم أشرب حتى الماء ، رفضت أن أدنس جسدي بطعامهم ومايهم ، أما كعك القدس فوالله كان أحلى وأروع ما أكلته طوال عمري ، فرغم أني كنت أتناول الطعام في أفحى المطاعم في كوريا وعمان ورغم حبي ل الطعام أمي لكنني أقول : "لا شيء يعلو على كعك القدس ، يبقى قدساً لا يستطيع أحد أن يدنسه ، فهو الأقصى المبارك به وحوله " .



كان ذلك اليوم يا ابتي هو صباح يوم الجمعة ، فطلبت من صديقي أن يتركني أمضي يومي بالمدينة ، وقلت له أنتا سوف نعود إلى منزله الثاني الموجود في أحد أحياط القدس بعد الصلاة ، الححت عليه فوافق ، ودّعه على أمل أن ألقاه بعد الصلاة عند باب العامود ، فبدأت أتجول في ساحات القدس ثم في أزقة القدس ، تلك القدس التي أحبها والتي طالما حلمت بأن أصلى فيها ، رأيت المستوطنين ؛ رأيت المحتلين ؛ رأيت الأم الفلسطينية ؛ رأيت القدس ، رغم كل غضبي على المحتلين إلا أن غضبي على السلطة والفساد والإفساد كان أكبر وأعظم !

بدأت أبيات الشعر في تلك الجولة المقدسية تحوم حولي كأنها سرب من الصقور ، فقلت الآيات التالية ، لا أدرى أهي شعر أم أي شيء آخر ! أظن أن المشاعر أصبحت كلمات لا أكثر ولا أقل ! فأنا يا ابتي لست شاعراً ، وحتى أني لا أخفيك سراً إن قلت لك أني لا أحب الشعر أصلاً ، قلت :

في القدس ما عاد للانتظار مكان *** في القدس ما عاد بالمكان إنسان
في القدس غرست أنياب الطغيان *** في القدس غرس الصهاينة والاستيطان
في القدس ما عاد للحجارة أثمان *** في القدس ما عاد يسمع صوت الأذان
في القدس غرس المحتل الحزن *** في القدس غرس قاطعو الزيتون
في القدس ما عاد للقباب لمعان *** في القدس ما عاد حي سلوان
في القدس غرس الظلم والجحون *** في القدس غرس عطش الظمآن
في القدس ما عاد زيت وزيتون *** في القدس ما عاد المصليون يأمون
في القدس غرس ظلم بلا قانون *** في القدس غرس قضاة ظالمون

في القدس ما عاد يطحن طحين *** في القدس ما عاد عنب ورمان
في القدس غرس الكره لا الغفران *** في القدس غرس الجهل والطغيان
في القدس ما عاد هناك أديان *** في القدس ما عاد هناك مصلون
في القدس غرس أعداء غيلان *** في القدس غرس وحش مجنون
في القدس ما عاد الأبيض لوناً *** في القدس ما عاد بالسماء ألوان
في القدس غرس قلب حزين *** في القدس غرس أعمى بلا عيون
في القدس ما عاد للمكان تكوين *** في القدس ما عاد يقرؤ القرآن
في القدس غرس الجن والجحان *** في القدس غرس من الكفر دان
في القدس ما عاد هناك فلسطينيون *** في القدس ما عاد سوىبني صهيون
في القدس غرس جثمان المجاهدين *** في القدس غرس القيد بأيدي المأسورين

قلت تلك الأبيات يا ابتي الحبيبة ويا ملاكي الحراس بعد أن صليت في القدس ، فقد
سمح لي بالصلاه في الأقصى لأنني أحمل جواز سفر أجنبى ؛ ولم يسمح للفلسطينيين الشباب
بالدخول للصلاه ، قلت تلك الكلمات بعد أن رأيت أول شهيد يصلى عليه ، شهيد ارتقى للعلا
على يد مستوطن محتل قام بطعنه في إحدى شوارع القدس ، فصلوا عليه وصليت ، وكبروا
وهللوا فكَبَرْتُ وهللت ، قلت الله أكبر الله أكبر ، ولكن أحدهم قال جملة أصبحت هي محور
حياتي القادمة ؛ قال ذلك الفتى : " الانتقام الانتقام ؛ يا كتائب القسّام ، الانتقام الانتقام ؛ يا
كتائب القسّام " ، فكررت من بعده وكرر كل من كانوا هناك ، غضبتُ وعشقتُ وصليتُ وذقتُ

لأول مرة الحب ! فلقد أحبيت القدس وقبة الصخرة المشرفة من أول نظرة ! بل عشقتها من أول
كعكة !!

تأخرت على صديقي ، لكنه بقي يتظرني عند باب العامود ؛ إحدى بوابات القدس الشريف ، كان قلقاً بسبب حادثة استشهاد الشاب المقدس ، كان قلقاً علي ؛ لكنني كنت قلقاً على فلسطين ، ذهينا إلى منزله الكائن في إحدى ضواحي القدس ، فتناولنا الطعام ؛ وبعد ذلك طلبت منه أن يتركني لأنام ، فأنا لم أكن قد نمت منذ ليلة البارحة .

نمت حتى المساء ، وفي المساء أخذني لزيارة بيت لحم ، فتجولت فيها وفي كنيسة الميلاد وأضاءت شمعة هناك على المذبح ، فالميلاد مثل القدس ؛ والقدس مثل الميلاد عندي ، بعد ذلك عدنا باتجاه الخليل ؛ وأمضينا ليتنا هناك عند أحد أصدقائنا .

بقيت طوال فترة السهرة أسأل عن أحوال فلسطين وأحوال الخليل ؛ خليل الرحمن ، عن قصة ذلك المستوطن الذي قتل المصلين في الحرم الإبراهيمي الشريف ، فقصوا علي القصة .

أهم ما قالوا لم يكن عن القاتل الذي قتل شهداءنا في تلك المجازرة البشعة وتلك الجريمة الدنئية ؛ بل كان عن ذلك المقاوم المهندس يحيى عياش ، ذلك المهندس القسامي الذي ثأر وعاقب الصهاينة من خلال عملياته الاستشهادية ، ومن خلال مقاومته للمحتلين المستوطنين ، لقد أحبيت يحيى عياش مثلما أحبيت القدس تماماً ، فعياش ذلك المهندس القسامي أعاد لي من خلال حديثهم عنه روح المقاومة وروح التصدي للظلم والطغيان .

في الصباح الباكر ذهبنا إلى مدينة رام الله لكنني وجدتها نائمة ، ظننت أنني سوف أرى المظاهرات تخرج ضد الاحتلال بسبب استشهاد الشاب المهندس ، لكنني لم أر سوى قطيع أغnam الأجهزة الأمنية ، أجهزة أوسلو التي تمنع الناس من الخروج للتظاهر ضد الاحتلال ونصرة للشهيد .

وهنا يا ابتي الجميلة ويا ملاكي الحارس قلت معاتباً مدينة رام الله وراثياً حاها :
رام الله قومي استيقظي أرجوك *** وأيقظي كل من أحبوك
أحزينة أنت فأبكوك *** على الشهداء الذين ودعوك
وتحالفوا مع المحتل فبالظهر طعنوك *** رام الله قومي استيقظي أرجوك

بعد أن تجولت قليلاً في مدينة رام الله ، ضاق صدري بمواكب الحراسات الفلسطينية التي تحرس كبار الشخصيات وهي تجول وتصول في المدينة المسلوبة المنهوبة من قبلهم ، ألا يكفي أن سلبها المحتل الصهيوني ؟! ألا يكفي ما حل بها ؟! ألم هي بحاجة لأن يدخلها أبطال أوسلو لكي يمارسو بطولتهم عليها ويزيدوا من جراحها جراحًا ؟!

وهنا طلبت من صديقي أن يصطحبني بعيداً جداً ؛ إلى البحر وإلى المدن المحتلة ، هناك إلى يافا وحيفا وإلى اللد والناصرة ، زرت تلك المدن التي رغم أنها محتلة بشكل كامل إلا أنها كانت خالية من قوات الاحتلال ، فهي أصبحت الآن من المسلمات بعد أن تنازل عنها المفاوض الفلسطيني ، ذلك المفاوض الذي لم يفوه أحد لكي يبيت بأمر فلسطين ، فاوض وباع وتنازل عن كل تلك الأراضي التي احتلت بعد عام ١٩٤٨م ، ذلك المفاوض الذي حضر

مطالبه في الضفة والقطاع وبعض الشوارع المجاورة لمدينة القدس ، حسبي الله ونعم الوكيل
على كل من باع ذرة تراب من تراب فلسطين ، فلسطين القدس والأقصى ، فلسطين الفاتح عمر
ابن الخطاب ، فلسطين التحرير صلاح الدين ، باعواها وحصلوا على بطاقات "الشخصية المهمة"
(VIP) بدلًا عنها ، حصلوا على المراكب المرافق ، وملؤوا جيوبهم وحساباتهم البنكية ؟ بعد
أن قبضوا ثمن كل قطرة دم نزفت على تراب فلسطين !

اعلم يا ملاكي الحارس أني لم أحب يوماً من الأيام ياسر عرفات ، ولن أحبه أبداً ، أليس
هو من ناصر الطاغية صدام حسين؟ أليس هو من جر علينا ويارات أيلول الأسود في الأردن؟
أليس هو من طردنا من لبنان ؟ لماذا عاد إلى فلسطين ؟ أعاد إليكم مشواره في تدمير الشعب
الفلسطيني ، شعب أطفال الحجارة ، ورجال الانتفاضة ؟

هناك في الناصرة زرت كنيسة البشارة وأشعلت شمعة فيها ، فأنا يا ابتي تعودت أن أزور
الأماكن التاريخية ، ولقد اكتسبت هذه العادة من خلال دراستي للأدب الكوري ، فلقد زرت كل
المعابد في كوريا ؛ معابد وكنائس ومساجد ؛ ولذلك أصبحت أرغب بالتعرف على الآخر ،
على الحضارة وعلى العادات والتقاليد .

أما على الشاطئ وعندما حل موعد الغداء فلقد أكلت السمك ، وما إن احتللت رائحة
السمك المشوي مع رائحة مياه البحر ، حتى قلت كلمة ؛ بل جملة جعلت صديقي يفتر من
كرسيه راجياً إياي أن أسكـت ! قلت : " أقسم بالله أن أحـرـ فـلـسـطـينـ كلـ فـلـسـطـينـ،ـ أـقـسـمـ أنـ أـجـرـدـ
الصـهـاـيـنـةـ مـنـهـاـ،ـ وـأـقـسـمـ أنـ أـجـرـدـ أـشـيـاهـ رـجـالـ أـوـسـلـوـ مـنـهـاـ"ـ،ـ وـكـرـرـتـ ذـلـكـ مـخـاطـبـاـ الـبـرـ.

كررت ما قلت وكان صوتي يعلو ويعلو ، أما صديقي المقدسي فكان يرجوني بأن أسكث ، لم أسكث بل كررت بصوت أعلى وأعلى ، ولكنني قلت تلك الجمل بلغة لا يفهمها صديقي أو من كانوا بالمكان ، قلتها باللغة الكورية ؛ لغتي التي تعلمتها عندما درست وعملت بكلوريا ، فتحولت تلك الجمل إلى ما يشبه لحن نشيد جليل ، فلسطين كل فلسطين ، ولا شيء سوى كل الكل في فلسطين .

بعد أن انقضى النهار وحل المساء ، كانت أول المدن الساحلية الفلسطينية تزداد جمالاً وتألقاً ، تناولت عشاءي وطلبت من صديقي أن يوصلني لقريري ، إلى بيت ريه حيث متزوج والدي ، حيث العروس تنتظرني .



في الطريق إلى القرية كنت صامتاً غارقاً بالتفكير ، فلقد قررت أنه بمجرد رؤيتي للعروس أن أقول : " لا وألف لا ! هذه العروس لا تناسبني أبداً ! " ، هكذا قررت ، وعلى هذا نويت !

وصلنا القرية بعد منتصف الليل ، كنت أظن أنني سوف أجده صعوبة بالوصول لمنزل والدي ، ولكنني وجدت والدي يتظرني على مدخل القرية ومعه عدد من أبناء عمي ، يتظاروني منذ أيام ، فلقد صادف أن والدة صديقي المقدسي زارت أمي في عمان ، وأخبرتها أنني هناك في فلسطين منذ عدة أيام ، والدي كان يعتقد أنني قد اعتقلت من قبل قوات الاحتلال على الحدود أنا وصديقي المقدسي ، لأننا طوال تلك الأيام لم نتصل بأحد عبر الهاتف أو الجوال ، فلقد أغلقت جهازي وطلبت من صديقي أن يغلق هو الآخر جهازه حتى لا يزعجنا أحد خلال رحلتنا في ربوع فلسطين الأبية .

والدي كان غاضباً؛ بل غاضباً ومسوراً ، فلقد رأني سالماً وهذا ما كان يهمه ، فبرغم أنني تجولت وزرت عدداً كبيراً جداً من دول العالم؛ إلا أنها المرة الوحيدة طوال عمري التي يقلق بها والدي علي ! فأنا زرت معظم دول آسيا مثل كوريا وهونغ كونغ وتايوان والصين واليابان وحتى أني زرت ماليزيا وأندونيسيا وتايلاند ، أما عربياً فزرت معظم دول الخليج العربي والعراق وسوريا ! لم يقلق علي والدي أبداً ، أما هذه المرة فقد قلق جداً وغضب جداً !

وعندما سأله قال : " في تلك الدول هناك قانون وشائع ؛ أما هنا فشريعة الغاب هي التي تحكم ، شريعة الصهاينة خونة العهود وناكثي الوعود ، هنا شريعة سلطة الفساد والإفساد التي تقوم على الرشوة والعمالة للمحتل ، لذلك قلقت عليك يا ولدي ، أعلم أنك كبير وواعٍ وأنك

قوى جبار يا ابني الغالي ، لكنني أعلم أنهم كفرة فجرة ؛ لا ذمة لهم ولا دين ، دير بالك على حالك ، بكرة إن شاء الله سوف ترى العروس وبعد ذلك تعود إلى عمان ، أنت يا ولدي مثل السيف ، ونحن لسنا بحاجة لسيف في فلسطين ، فالسلطة باعت والعدو اشتري ، ولا مكان للسيوف هنا ، هنا مكان للمحاريث التي تحرث الأرض أو ما بقي من الأرض ، محاريث تحرث وأناس يزرعون ، ولا يمكن أن يصبح السيف محراثاً أبداً" .

آه منك يا والدي ويَا معلمي الأول ، يا من تَعْلَمَ ولا أعلم ، ويَا من ترى ما لا أرى ، رغم أنك لم تدرس ورغم أنك إنسان طيب بسيط جداً ، إلا أنك عميق الفكر والتفكير .

أمضيت تلك الليلة في منزل والدي ، بل أقصد منزل جدي الذي ورثه عن جد جد جده ، لم يكن منزلًا بل كان عبارة عن شيء آخر يسمونه العلالى ، أو القلعة أو القصر ، كان شيئاً قد يُمْضِيَّ في تلك الليلة لم أسلم من البعض الذي أقلق منامي ، رغم أن الحداثة قد دخلت إلى جدًا تبلغ سماكة جدرانه من مترين في بعض الأماكن إلى متر ونصف في أماكن أخرى ، كبير وجميل ؛ لكنه بحاجة ماسة للإصلاح والترميم .

في تلك الليلة لم أسلم من البعض الذي أقلق منامي ، رغم أن الحداثة قد دخلت إلى قريتنا منذ زمن طويل ؛ إلا أن والدي بعد أن عاد إلى فلسطين لم يفضل إدخال الحداثة إلى تلك القلعة التي ورثها عن أبيه وأجداده ، فضل أن يعيش على مصباح يضاء بالказ ، ولم يكن يملك أي شيء يمْتَزُ للحداثة بصلة في ذلك المنزل ، رغم أن منزله في عمان أشبه ما يكون بمحل للأدوات الكهربائية الإلكترونية ، فمثلاً بعد أن عدت من كوريا قمت بتركيب صحن لاقط هو الأكبر على مستوى الأردن ، فكان حجمه قائماً مكتتملاً يتجاوز الأربعة أمتار ونصف ، وعندما

كنت في كوريا كنت أرسل لإخوتي أحدث الأجهزة الكهربائية والكمبيوترات ، ولكن هنا في القلعة لم يكن سوى الحجارة والبعوض .

استيقظت مبكرًا على صوت المؤذن ، فلقد كان المسجد القديم يقع بجوار منزل والدي ، صلى والدي بالمسجد وصليت أنا متيمًا لأنني لم أجده الماء ؛ فلقد أخذ والدي المصباح معه ليり الطريق إلى المسجد ، بعد أن عاد توضأت وصليت ، وأعدّ لي والدي طعام الإفطار ؛ طعاماً أقسم أن طعمه ما يزال في فمي إلى الآن ، رغم أنه لم أترك صنفًا من أصناف الطعام إلا وتناولته خارج فلسطين ، إلا أن ما أعده لي والدي كان له طعمٌ خاص ورائحة قدسية أخرى !

عندما أحضر والدي صينية القش التي وضع عليها أطباق الطعام ؛ وجدت مقلة مليئة بزيت الزيتون وفيها عدة بيضات مقلية ، كانت البيضات غارقات بالزيت ، وكانت على صينية القش عدة حبات من البندورة وصحن للزيت وصحن مليء بالجبنة البيضاء .

أنا أكره الزيت وأكره الدهون كثيراً ، فلقد تعودت في كوريا على الأصناف المسلوقة والممشوية ، أما الزيت فلا وألف لا ، هذا ما قلته لنفسي ؛ ولكنني تجاوبت مع إلحاد والدي ، فبدأت بتناول الطعام ، ولم أتوقف إلا بعد أن مسحت الأطباق ؛ فلقد أحببت خبز الطابون والزيت والزعتر ، أحببت القلعة ، بل إنني أصبحت جزءاً من تلك القلعة وتاريخها .

أمضيت يومي مستقبلاً المهنيين بوصولي سالماً غانماً كما يقولون ، أهم المهنيين كان "بلال" ؛ بلال ابن عمي الذي فقد كلية قبل أعواام طويلة عندما كنت في كوريا ، بينما كان يلقي الحجارة على اليهود في طرقات فلسطين ، بلال يصغرني بعده أعواام ، ما زال يدرس في الجامعة

علم الاجتماع وعلم النفس ، تلك الجامعة ، جامعة المهندس يحيى عياش ؛ جامعة بيرزيت ، لم نتمكن من الحديث طويلاً فلقد كان المهنتون كثراً ، أمضيت يومي الأول على هذه الحال وجزءاً من اليوم الثاني .

وعندما حل مساء اليوم الثاني توجهت مع والدي لرؤية العروس حسب موعد مسبق ، في ذلك اليوم قدر الله لي أن أرى أجمل وأحلى عيون في حياتي ، أحببت عيونها ؛ بل سحرتني بعيونها الخجولة ، فطلبت يدها على الفور .

بعد ذلك عدت إلى عمان لأعد لأمور الزواج هناك ، وما هي إلا أشهر قليلة حتى جاءت لعمان وتزوجتها هناك ، كانت بفضل الله زوجة كاملة متکاملة ؛ هادئةً وصامتة ، ذات فكر ناضج وعقل واسع ، وهنا أقول لك يا ملاكي الحارس أني للمرة الأولى في حياتي قد وقعت في الحب وذقت طعمه .

رغم أني عندما سافرت إلى فلسطين أردت أن أقول "لا" لذلك الزواج ولم أسافر إلا بإرضاء لوالدتي الكبيرة المريضة - شفاه الله - إلا أني وقعت في الحب من أول نظرة ، هل كان ذلك سحر الحب ؟ أم سحر فلسطين ؟ لست أدرى ! ولا أريد أن أدرى ! ما يهمني هو أني عشت وما زلت أعيش رغم مرور أعوام طويلة في حالة من الحب المستمر ؛ حب عماده الاحترام والتفاهم ؛ حب لا غالب له ولا مغلوب .

طوال تلك الأعوام لم تحدث مشكلة واحدة أبداً ، لا عندما كنت ثرياً ولا عندما أصبحت فقيراً معدماً ، لا عندما كنت حراً طليقاً أجول معها بجولات سياحية في أجمل الفنادق ، ولا

عندما أصبحت أنا وهي مطارَدَيْن بلا مأوى ، ولا عندما أُسِرْتُ ، فهُدمت وفُجِّرت القلعة .

ظل الحب هو عmad علاقتنا وما زال ، لكن هناك حُبًا آخر بدأ يكبر وينمو بداخلني ؛ حب للجهاد والحجر ، حب للتراب والشجر ، حب لفلسطين والقدس ، وذلك ما إن حملت زوجتي حتى ودعتها بعد أن ضيّقْتُ أعمالِي التجارية في عُمَان ، وعدت إلى هناك إلى فلسطين ؛ لا بل إلى القدس .

هناك عملت في إحدى الشركات المقدسيّة التي يملكها صديق لي ، وكانت تلك الشركة تعمل في مجال الفولاذ المصلّور ، ومن هنا ابتدأ المشوار والحكاية ، حكاية "مهندس على الطريق" ؛ وحكاية "أمير الظل" ، حكاية صاحب أعلى حكم في تاريخ القضية الفلسطينية ، حكاية المحكوم بسبعة وستين مؤبدًا وخمسة آلاف ومئتي عام ! حكاية صاحب أكبر ملف أمني في تاريخ دولة الاحتلال الصهيوني ، حكاية عبد الله البرغوثي .



ابنتي الحبيبة وملاكي الحارس :

عندما دخلت إلى فلسطين لم يكن هدفي العمل وجمع المال ؛ فلقد كنت أملاك من المال ما يكفيني ويكتفي عائلتي أضعاف أضعف ما يمكن أن أصرفه طوال حياتي ، ولم أبحث عن الحب أو الزواج ؛ فلقد كنت قد أحببت وتزوجت ، دخلت فلسطين لأنني أقسمت بالله أن أعمل على تحريرها من المغتصبين الصهاينة ومن فاسدي سلطة أوسلو ، كيف ؟ لا أعلم ، كل ما كنت أعلم هو أنني حملت بداخلني الأمل وإخلاص النية على تحقيق هدفي ، فتحولت أملني وحلمي إلى واقع ملموس كرست لأجله كل طاقاتي وإمكانياتي ، بعد الله استعنت بالكتمان والصمت على أصل إلى طريق الحرية والتحرر .

عندما اتخذت ذلك القرار كانت فلسطين هادئة جداً ؛ وكانت المفاوضات تسير بلا انقطاع ، كان التنسيق الأمني بين قوات الاحتلال الصهيوني وقوات الأمن الوقائي والمخابرات الفلسطينية على أعلى مستوى ، وكم فوجئت عندما علمت أثناء زيارتي الأولى لفلسطين أن هناك اثنين من أبناء قريتي وعائلتي معتقلان على نفس القضية وهي الانتماء لحركة حماس ! وأن الاثنين محكومان بعدة أعوام ! هذا غير مهم ، المهم أن أحدهما معتقل ومحكوم عند الصهاينة ، والآخر معتقل ومحكوم عند كلاب الصهاينة ؛ عند السلطة الفلسطينية ، قاوما معاً فسجنا عند المحتل وكلب المحتل ، لذلك أخذت من الكتمان والعيش بعيداً في الظل وسيلة لي على أصل إلى غايتي .

قبل دخولي لفلسطين في زيارتي الثانية ؛ أدخلت كل ما يلزمني من أدوات وأجهزة خاصة

تساعدني على مقاومة المحتل ، وعندما أقول كل ما يلزمني أعني ذلك كل ما تحمل الكلمة من معنى ؛ الإشارات اللاسلكية وأجهزة إلكترونية وأدوات كهربائية ومواد تستعمل لتفجير والكثير الكثير ، دخلت دون أن يتبه أحد ، مخبأة بداخل أجهزة كهربائية عادية ، وذلك بسبب قوة ومتانة التنسيق الأمني بين أعدائي و "أعدائي" ، أدخلت ما أريد إدخاله أمام أعينهم ، فكل واحد منهم كان يفهم أن الآخر سوف يقوم بمهمة التفتيش نيابة عن الآخر ، اللهم اضرب الظالمين بالظالمين .

وما إن استقر عملي بالقدس حتى اشتريت عدداً من أجهزة الحاسوب ، لأدمجها وأوحد قوتها لكي أتمكن من اقتحام شبكة الانترنت ، وأصبحت كما كنت في كوريا أدخل الواقع التي أريدها ، أرى محتواها وآخذ منها ما أريد ، والأهم من ذلك هو الكتمان ، أدخل بهدوء ؛ وأخرج بهدوء ، ولم يكن قصدي التخريب ؛ بل كان قصدي وهدفي أن أعرف الآخر ، أعرف عدوي وأعرف قدراته ، لم أكتف بذلك بل وخلال مدة قصيرة استطعت اقتحام شبكة الاتصالات الخلوية الصهيونية شركة "سلكم" وشركة "موتورولا" وشركة "أورانج" ، تلك الشركات العاملة في مجال الاتصال في الكيان الصهيوني المعادي ، أما عند سلطة الفساد والإفساد فكان هناك شركة واحدة هي شركة "جوال" ، فاقتحمتها هي الأخرى .

مكتتنبي تلك الاقتحامات من السيطرة بشكل كامل على المكالمات الواردة والصادرة ، أما المهم فكان سيطرتي على استرداد السمع من تلك الأجهزة وهي في حالة سكون ؛ أي أستمع لما يجري من حديث في المكان الموجود به أيّاً من تلك الأجهزة .

بعد ذلك بدأت بإعداد الأدوات الإلكترونية والمواد الكيماوية الالازمة لصناعة العبوات المتفجرة والناسفة بمختلف أنواعها وأشكالها ، كل ذلك تم بصمت .

بقيت على هذه الحالأشهراً عدة بحيث أعمل في الشركة من ناحية ؛ وأقوم بالإعداد لمعركتي من ناحية أخرى ، فلم أكتف بالجلوس خلف أجهزة الحاسوب ؛ بل أصبحت أمضي أيام العطل أتجول في مدن فلسطين المحتلة من أقصى الجنوب ؛ أي من أم الرشراش - أو كما يسمونها - إلى الجولان وبحيرة طبريا ، وبذلك عرفت عن الطرق وكيفية التنقل ، وأكثر ما ساعدني هو جواز سفرى الأجنبى ولغتى الإنجليزية ذات الل肯ة الأمريكية ، فأصبحت أعرف فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ م أفضل مما أعرف مدن الضفة الغربية .

لم أكن أزور القرية إلا نادراً رغم إلحاح والدي الذي ما زال هناك ؛ فوالدي أصبح يفضل البقاء في القرية ولا يعود إلى الأردن إلا في المناسبات ، ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً أكثر من أشهر معدودة ، أما السبب فهو يا ملاكي الحارس يا ابنتي الحبيبة أنه قد اقترب موعد مولده ، وأحببت أن تولدي هنا في فلسطين ، ولذلك كان لزاماً علي أن أصلاح وأرمم قلعة جدك القديمة، فأصلحتها وأعدت لها رونقها وجمالها وأدخلت عليها كل أسباب الراحة ، فمثلاً لاحظت أن الكهرباء تقطع باستمرار بعد أن أوصلتها للقلعة ؛ وكان السبب هو رداء الشبكة الكهربائية في القرية ، ولذلك قمت بتركيب نظام طاقة شمسية فوق سطح القلعة ؛ وهكذا أصبحت أمليك الكهرباء بشكل دائم ومستمر ، ولم أترك أداة ووسيلة من وسائل الراحة إلا واشتريتها ووضعتها في القلعة ، وأنشأت القلعة بالإنشاء الحديث الجميل ؛ ولكنني لم أكن أبیت في القرية بل كنت

أقود سيارتي عائداً إلى شقتي في القدس ، حيث أمضي الليل متقبلاً ومستطلاعاً عدوّي .

و قبل موعد مولدك بشهر واحد أصبحت القلعة جاهزة ، فطلبت من والدتك الحضور من عمان إلى فلسطين ؛ ولم تكن تعلم بما قمت به ، فظنت أنها سوف نسكن في القدس أو رام الله ، ولكنها رسمت ملامح الحزن عندما قلت لها أنها سوف نسكن في بيت والدي في القرية ، فهي ظنت أن القلعة على حالها ، مجرد كومة من الحجارة كما تركتها قبل أن تصادر إلى عمان ، ولكن سرعان ما تغيرت ملامح الحزن لتصبح ملامح فرح وسرور عندما وجدت البيت بأحلٍ حلة وأفضل حال .

وفي يوم ٢٧/٩/١٩٩٩ تلقيت اتصالاً من أحد أخوالك يبلغني فيه أنه نقل والدتك إلى المشفى في رام الله لتلديك ، فحضرت مسرعاً من القدس .

ابتني تالا ، هذا هو الاسم الذي أسميتها إياه قبل أن تولدي ، لم أكن أحظى بأي وقت للفارق عندي إلا لشيء واحد وهو متابعة أعدائي ، أما بعد أن ولدت وأصبحت حقيقة وواقعاً انقلبت حياتي رأساً على عقب ، فلقد أصبحت ومنذ اليوم الأول لولادتك لا أذهب إلى عملي في القدس أو إلى شقتي هناك لمتابعة ما كنت أقوم به ، أصبحت أمضي معظم وقتني في القرية برعايتي لك ورعايتك التي أحب .

تالا ، هل تعلمين أنك ارتديت مئة فستان وأكثر في أول مئة يوم لك في هذه الحياة ؟ !
فلقد كنت لا أكف عن شراء الملابس والألعاب والهدايا لك وكل ما أراه مناسباً لك أو حتى غير مناسب !

تala ، أنت ولدت بعد حرمان طويل ، حرمان لم أكن أشعر به ، ولكن عندما أمسكت بك بعد ولادتك بثوان من يد الطبيبة التي ولدت أمك ، حتى شعرت بمدى ذلك الحرمان من نعمة الأولاد والأطفال ، فكما قال رب العالمين : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " صدق الله العظيم.

المال كنت أملك منه الكثير والكثير ، أما البنون فأنت أول الأبناء يا ملاكي الحارس ، هل تعلمين أن اسم الطبيبة التي كانت تشرف على حالة أمك في شهرها الذي أمضته في فلسطين كان "فلسطين" ؟ ! نعم "فلسطين" ، هو اسم الطبيبة التي رأيت على يديها النور !

قالت لي "فلسطين" : " إنك أول أب أراه في فلسطين طوال عملي كطبيبة داخل غرفة الولادة ويختضن طفلته قبل أن تحضنها أنها ، وقبل أن نجري لها الفحوص الالزمة ! " ، فقلت ما دامت "فلسطين" هي من ولدت زوجتي على أرض فلسطين فلا شيء غريب أو عجيب .

هنا يا ابتي شعرت أن القرية بحاجة إلى بعض المشاريع التجارية ؛ ولذلك افتتحت محلًّا للأدوات الكهربائية و محلًّا آخر للسوبرماركت ، وأصبحت أمars التجارة مرة أخرى ، بالإضافة إلى عملي في القدس ، بل إنني وسعت هذه التجارة فأصبحت أستورد السيارات المستعملة من كوريا عن طريق عمان وأتاجر بها .

أصبحت أتاجر بالعقارات ، فلقد أعادتنـي لحياتي السابقة من تجارة ومنافسة بالسوق ، وأبعدتنـي عن هدفي الذي كنت أسعى إليه ، بقيت طوال عام تقريباً على هذا الحال .

و قبل موعد ميلادك الأول جاء موعد قطف الزيتون ، ولذلك عملت على أن تسير

أعمالي التجارية عن طريق من يعملون معي وتفرغت لقضاء عدة أسابيع في قطف الزيتون ،
و كنت أصطحبك مع جدك وأمك إلى كروم الزيتون الخاصة بجدك لتعاون على قطف الزيتون ،
هناك تعلمت المشي وسررت أول خطواتك في جبال بيت ريم .

في تلك الأيام أعدت تنسيق أفكارِي مرة أخرى وأدركت أنني ما عدت عبد الله أمير
الظل ، بل أصبحت مجرد تاجر مهندس همه جمع المال ؛ المال الذي لم أكن بحاجة إليه أصلاً !
لم أعد مهندساً على الطريق ؛ بل مجرد مهندس يسخر عمله لإنجاح مشاريعه .

لكن ذلك لم يدم طويلاً ؛ فما أن أكملت عامك الأول أي بتاريخ ٢٠٠٠/٩/٢٧ م حتى
قام ذلك القدر شارون بتدمير المسجد الأقصى واندلعت الانتفاضة الثانية ، و كنت أنا هناك في
جبال بيت ريم أقطف الزيتون وأراقب بهدوء حتى أقرر ماذا سوف أفعل .

كنت حائراً ، فأنا وحدي لا أستطيع مقاومة الاحتلال ، فبدأت أفكِر دون جدوى ، دون أن
أصل إلى طريق أو إلى نقطة بداية أبداً من عندها ، فعلاقتي مع محيطي تكاد تكون مقطوعة ؛ أو
شبه مقطوعة ، فلم أكن طوال وجودي في فلسطين أبني وأقيم العلاقات مع أي أحد ؛ ولا حتى
مع بلال ابن عمِي وصديقي ؛ فلقد كان هو في عالمه الخاص ؛ وأنا كنت في عالمي الخاص .



بعد أيام قليلة على اندلاع الانتفاضة ، قدر الله أن تصابي يا ابنتي بمرض عجز عن علاجه أطباء القرية ، ولم يكن من السهل نقلك إلى رام الله ؛ لأن قوات الاحتلال حاصرت قريتنا ، ووضعت حواجز ترابية على الطرقات منعت تنقل السيارات الخاصة ، فانطلقت إلى إحدى القرى المجاورة بسيارتي ، ومن هناك ركبت معك ومع والدتك إحدى الحافلات لكي نصل إلى رام الله ، قدر الله لك أن تمرضي ولكنه قدر لي أن أرى بداية الطريق ، طريق الجهاد ؛ طريق عز الدين القسام ؛ طريق يحيى عياش .

في منتصف الطريق وقبل أن تصلك الحافلة إلى مدينة بيرزيت توقفت ، وتوقفت أمامها الكثير من الحافلات وأغلقت الطريق ، فنزلت لكي أرى ما المشكلة وأعرف سبب إغلاق الطريق ، هناك وجدت حافلتين ترفض إحداهما السماح للأخر بالمرور قبلها ، ووجدت شخصين فاجرين هما السائقان ، فلقد كانوا يكيلان السباب والشتائم للذات الإلهية ! كانوا يكفران بأشنع الألفاظ ، بل كانوا يتقنان لفظ كفرهما ، عند ذلك الموقف ابتسمت ؛ نعم يا ابنتي ابتسمت ؛ فشر البليه ما يضحك ، ابتسمت وعدت إلى الحافلة التي كنت أستقلها معك أنت وأمك ؛ لكنني لم أعد لأجلس في الحافلة ؛ بل عدت لأنزع ربطه عنقي وجاكتيي وساعتي ، نزعتهم وشمرت عن ذراعي وانطلقت عائداً إلى السائقين الفاجرين .

التقطت الأول من عنقه وقلت له : "كيف تسب ربي يا أيها الكافر الفاجر ؟ ألا تعلم أن الذي تسبه هو ربى ؟ رب عبد الله البرغوثي ؟ " ، قبل أن يجيب انھلت عليه بالكلمات والضربات حتى أدميته بين ذراعي وألقيتُ به إلى وادٍ بجوار حافلته ، وتوجهت فوراً إلى السائق الآخر الذي

ما إن تلقي اللعنة الأولى حتى ولّى هارباً إلى الوادي الآخر ، صعدت إلى حافلته وقد تها بعد أن أنزلت ركابها لتسقط في الوادي ، وفعلت ذات الشيء بالحافلة الأخرى ! لم يتجرأ أي من الركاب على سؤالي عما فعلت ، فلقد كانت قوتي مفرطة ونظرات عيوني قاتلة ، عندها صحت قائلاً : " أنا عبد الله البرغوثي ؟ من كان له حق عندي فليأت إلى قريتي ؛ إلى بيت ربي ليأخذ حقه ، ولكنني أقسم بالله العلي العظيم أن لا أجعله يخرج حياً من بين يدي ، فمن يسب الذات الإلهية لا مكان له عندي سوى القبر " !

تركتهم بذهولهم بعد أن عادت حركة الحافلات إلى مجريها الطبيعي ، ولكن هناك يداً أمسكت بيدي وقال صاحبها : " ما شاء الله حديد ! حديد الله يقويك يا ابني " ، كان من أمسك بيدي شيخ كبير في السن ؛ ظل ممسكاً بيدي ويكرر : " حديد ما شاء الله حديد " ، صعدت إلى الحافلة وإذا به يصعد معه ؛ فلقد كان هو الآخر من ركاب نفس الحافلة ، بل كان من أبناء عائلة البرغوثي ، عائلتي الذين يسكنون في تلك القرية المجاورة .

قبل أن نصل إلى الحافلة كان الخبر قد وصل ، فلقد قصّ سائق الحافلة القصة دون أن ينتبه أنها قصة أحد الركاب الذين يركبون معه في نفس الحافلة ؛ فما إن وصلت مع الشيخ حتى قال : " هذا هو " ، ولم يكمل ، أما زوجتي فقالت : " ألم يُكْفِكَ ما فعلته في عمان؟ " .

في عمان هناك بعد أن تزوجت بعدهة أسابيع ، ذهبت لمقابلة أحد مدراء الشركات التي أتعامل معها ، وكان يسبّ أحد الموظفين عنده ، ولكن ما أثارني هو تجرؤه على الذات الإلهية ؛ فطلبت منه أن يكف عما يقول ، إلا أنه حول تلك الشتائم لي أنا وربّي ودينّي أنا ، فما كان مني

سوى أن انهلتُ عليه ضرباً مبرحاً ، فكسرت له فكه ويده وأحد أضلاعه ، مما جعله يرقد في المستشفى ما يقارب الشهرين ، وجعلني مطارداً من قبل قوات الأمن الأردني ، أعلم أنني كنت قاسياً ؛ أو حتى كما وصف سائق الحافلة الذي قال أنه رأى وحشاً غاضباً ينهال بالضرب على السائقين ، أعلم أنني قاسي ؛ ولكن أعلم أيضاً أن تربيتي الدينية بدولة الكويت تركت في داخلي أثراً كبيراً جداً من ناحية رفضي مثل هذه التصرفات التي أصنفها كفراً لا أكثر ولا أقل ، فمن يشتم الله ورسوله فهو كافر مرتد .

بعد أن أصبحت مطلوباً ومطارداً من قبل أجهزة الأمن الأردنية ، حاول عدد من أقاربي وأصدقائي التوسط لي مع ذلك المدير الذي كان ما زال يرقد في المشفى ، إلا أنه رفض وتوعد، بل أنه عاود شتم الذات الإلهية رافضاً أي وساطة متوعداً مهدداً ، لكن ذلك لم يطل كثيراً ، ففي إحدى الليالي وقبل طلوع الفجر أيقظته من نومه في المشفى ، أيقظته وأنا أضع في فمه فوهة مسدس وقلت له : " أعلم أنني لم أضر بك إلا نصرة الله عز وجل ؛ واعلم أنني سوف أقتلك إن لم تتنازل عن القضية ، فأنا لا أتوعد ولا أهدد ، أنا جئت لأخبرك فقط ما الذي سوف أفعله إن لم تفعل ما أمرتك به " ، سحبت فوهة المسدس من فمه وابتسمت له وتركته يكمل نومه ، هذا إن ذاق طعم النوم ، وما إن طلع الصبح حتى كان قد توجه إلى إحدى مراكز الشرطة لسحب البلاغ ضدني وسحب شکواه .

وما هي إلا أيام معدودة حتى وصلت عن طريق أحد أقاربي لقاضٍ أسقطعني المطاردة والحق العام ، فأنا أؤمن إيماناً قاطعاً أن من يوجه عمله لله فلا غالب له .

ما إن انطلقت الحافلة حتى انطلقت أسئلة ذلك الشيخ البرغوثي السؤال تلو السؤال ، كان يسأل بحماس وقوة ؛ وخاصة عندما علم أنني مهندس ، بعد ذلك سارت الحافلة نحو رام الله ، وأنزلتنا عند أحد الحواجز الترابية ، وما هي إلا عدة خطوات حتى علقت بحذائي سلسلة ذهب كبيرة معلقاً بها قطعة ذهب جميلة !

رفعت السلسلة وزوجتي ترافق يدي اللّٰتين ارتقنا إلى السماء ، فلقد رفعت يدي مخاطباً ربِّي شاكراً إياه على هذه العطية وهذه اللفتة الجميلة ، فأنا من عادتني أن أخاطب الله عز وجل دون تكلف ودون حواجز ، فأنا عبده وهو ربِّي ؛ ولم أخلق إلا لأعبدك ، بهذه البساطة أتعامل مع الله عز وجل ، وضعت إعلاناً عن السلسلة الذهبية في مدينة رام الله ، لكن لم يطلبها أحد فبقيت معلقة في رقبة زوجتي ؛ ولكنها تحولت من ذهب إلى رصاص بقدرة قادر ، وأصبحت جزءاً من وقود المعركة التي لم تبدأ بعد ، وبعد هذه الحادثة استشهاد أحد أقاربي في القرية المجاورة فذهبت هناك مع والدي لمشارك في جنازة الشهيد .



صلينا الظهر وانطلقنا للمقبرة ونحن نكبر ونلهمل ونذهب ونتوعد بالانتقام ، بعد أن ووري جثمان الشهيد الطاهر الشري ، بدأ أبطال السياسة بإلقاء الخطب العصباء ، فتركتهم وتوجهت لسيارتي ، هناك كان موعدي مع أبي لكنني لم أجده ؛ يبدو أنه فضّل سماع السياسيين وكلامهم الذي لا يروي العطشان ، فهو مثل ماء البحر المالح ؛ لا يزيد شاربه إلا عطشاً .

عند السيارة وجدت الشيخ الذي سبق وأن رأيته يوم مرض ابنتي تala ، قال لي : "ما رأيك بأن تذهب معي لتناول طعام الغداء معًا ؟" قلت له أني مستعجل ، قال : "ماراح أخرك أكثر، بدبي أغدوك وأعطيك أمانة توصلها لصاحبها" .

ما إن وصلت لبيته حتى خرجت لي زوجته الحاجة ، كانت بشوشة فرحة بقدومي ، سلمت عليّ وقبلت رأسني ! رأسي أنا قبلته تلك الحاجة ! قالت لي : "أنت تذكرني بولدي ، هو هناك بعيد في المعتقل ، فهو معتقل منذ أعوام طويلة منذ الانتفاضة الأولى" .

وضجعت الحاجة الطعام فأكلت وأنا منشغل بالإجابة على أسئلة الشيخ ؛ أسئلة كثيرة ، فلقد قال لي مثلاً : "إذا دخل علينا جندي صهيوني ماذا سوف تفعل ؟" ، قلت : "أكله حيًا فلا داعي للطعام الذي أعدته الحجة" ، قال : "بالله عليك !" ، قلت : "والله هذا ما سوف أفعله" .
أسئلة من هذا النوع ومن نوع آخر ، نوع لم أجب عليه لكنني أعتقد أن الله جعل الحاج يعرف الإجابة رغم أنني لم أجب .

بعد انتهاء الطعام شكرته وشكرت زوجته وهممت بمعادرة منزله ، ظلّ صامتاً ؛ لكنني ما إن اجتزت جزءاً من حديقة المنزل حتى صاح عليّ وطلب مني العودة فعدت ، "خيراً يا عمي

الحج؟" ، قال : " ألم تنس الأمانة؟ ألم أقل لك أني سوف أعطيك أمانة لكي توصلها لصاحبها؟" ، بقيت صامتاً فقال لي : "اتبعني واحمل معك هذا الفأس" ، حملت الفأس وسرت خلفه حتى وصلت إلى جوار أحد أشجاره فقال : "احفر هنا ، احفر بهدوء حتى لا تتلف ما بداخل الأرض" ، بدأت أحفر صامتاً حائراً، أجنّ هذا الشيخ أم أني أنا المجنون حتى أتبعه إلى هنا وأحفر في المجهول؟! بعد مرور فترة وصلت إلى كيس أسود وهنا قال لي : "احفر بحذر" ، فقلت له : "لماذا بحذر؟" ، قال : "والله يا ابني لا أدرى ؛ إنما احفر بهدوء وحذر" ، واصلت الحفر وأخرجت كيساً أسودَ كبيراً جداً ، وبداخله وجدت حقيبة جلدية معلقة ، فقال لي : "ارفعها وألقِ الكيس بعيداً ، واترك الحفرة فأنا سوف أعود فيها بعد وأعاود ردمها" ، قال لي : "اسبقني إلى البيت ولا تدع أحداً يراك ، فأنا يا ولدي بطيء الحركة كما ترى ، أسرع بالله عليك" .

أسرعت ووصلت ، ووصل هو أيضاً ، قلت له : "لمن أوصلك هذه الحقيبة؟ هذه الأمانة؟" قال لي : "أوصلاها لصاحبها" ، فقلت له : "بالله عليك يا عمي الحج لا تصر على فصيري بدأ ينفد ؛ من صاحب الحقيقة؟" ، قال : "أوصلاها للمهندس" ، "أي مهندس يا عمي الحج؟!" قال : "وهل يوجد مهندس في فلسطين سوى المهندس يحيى عياش؟" ، فقلت له : "عياش قد استشهد!" ، قال : "أعلم لكنها حقيبته وضعها عندي أمانة قبل أن يترك الضفة ويتوجه إلى قطاع غزة ، قبل أن تصل له يد الغدر والخيانة ؛ قبل أن يستشهد ، خذها وأوصلاها له" .

بقيت صامتاً حائراً ، فقال: " ألسنت مهندساً ؟ ألسنت أنت من غضب الله وغضب لكرامة نبيه محمد ﷺ قبل أيام ؟ ألم تقل أنك سوف تأكل الجندي الصهيوني حياً وبدون ملح ؟ خذها يا ولدي فصاحبها استشهد منذ زمن ؛ وابني في الأسر منذ أعوام طوال ومحكوم عليه بأعوام طويلة ، خذها بالله عليك فهي لك أنت ، أنت صاحبها وهي صاحبتك ، خذها وسر على درب المهندس عياش ، حرام أن تبقى مدفونة في الأرض بعد أن اندلعت الانتفاضة وبعد أن بدأنا نودع الشهيد تلو الشهيد " .

كان يتحدث والدموع تجري من عينيه ، حملتها وقبلت رأسه مودعاً هائماً في ملكوت الله ، عندما وصلت إلى سياري لم أجد والدي فلقد تأخرت عليه كثيراً ، فذهب مع أحد أقاربنا عائداً إلى البيت ، أما أنا فقدت السيارة ووضعت الحقيقة في أحد محالى التجارية الفارغة التي كنت أملكها في القرية .

لم أجرب على فتحها ورؤية ما بها ، كنت أخشى من تلك الكلمة "الأمانة" ، ألم يحمل الإنسان الأمانة وكان جهولاً بعد أن رفضتها الجبال؟ أحمل حملاً فوق طاقتني؟ ! حمل الشهيد وأمانته؟ بقيت الحقيقة "الأمانة" هناك أسابيع وأشهر قبل أن أحسم أمري وأفتحها .

خلال تلك الفترة بدأت أعيد توطيد علاقتي مع بلال ابن عمي ، وكانت أسئلتي كلها عن عياش ، وكان هو يحب أن يتحدث عن عياش كثيراً ، فعياش كان طالباً في جامعة بيرزيت ؛ وهي جامعة بلال في تلك الفترة ، كان بلال ناشطاً في الحركة الطلابية الإسلامية التابعة لحركة حماس، يشارك في كل الفعاليات ، وكان أيضاً في عامه الدراسي الأخير ولم يتبق على تخرجـه

سوى عدة أشهر فقط.

كل هذه الأحداث جرت قبل أن تكمل الانتفاضة شهرها الأول ، في تلك الأثناء كنت أردد كلمات متشابكة تجسد حالي التي وصلت إليها في حيرة من يبحث عن النور في آخر النفق ؛ ذلك النور الذي سوف أستدل به على طريقي وبداية المشوار .

فقلت الكلمات المتشابكة التي تعبت من تردادها على نفسي بصمت ، قلتها هذه المرة بصوت عال وأنا أقف على إحدى التلال المطلة على قريتي ، قلت :

لا تكن يا ابن غالب حمامه بسرب حمام *** فهذا هو الذل والخزي والاستسلام
وكن صقراً يخلق كالقسام *** بسماء العزة وأرض الإسلام
كن فارساً جواداً مقاوِماً *** وعزيزاً ذا نخوة كالمُعتصم
اضرب عدوك بقوة وداهم *** كل وكر من أوكر الظلام
فأنت نور الحق الهمام *** وأنت شيخ المنبر والإمام
اجعل عدوك يتجرع السم *** فلقد عاث بالدنيا فساداً وظلم
كن لإخوتك عوناً رحيم *** وكن على عدوك كنار الجحيم
لاترحمه واجعله يتآلم *** فلقد قتل الشيخ والطفل والأم
اجعل القرآن بصدرك ختم *** واقتدي بنبيك سيد الكرام
إن عز الزيت وانعدم *** فدمك زيت يا ابن القسام
دمك نور يا عز الإسلام *** قاوم عدوك بقوة ولا تنهرزم

تقدم الصفوف وكن بالأمام *** فأنت المصلي القائم تقدم
تقدم اضرب عدوك وهاجم *** وكن عليه بالرصاص كريم
فأنت الجواد ابن الكرام *** وهو الماكر الغادر اللوام
ثق بنصر ربك فهو قادم *** ولا تخش من عدوك فهو مهزوم
كبر وهللي يا ابن القسام *** وسر على درب العياش يحيى الهمام
فإن استشهدت الجنة لك مقام *** وإن انتصرت فالعزة لك يا ابن القسام

عقدت العزم على أن أبدأ المقاومة وأن أسير حاملاً لواء المهندس ، نزلت عن التلة
وتوجهت إلى منزل عمي لأقابل بلال ولكي أبدأ مشواري .



عندما وصلت إلى منزل عمي وسألت عن بلال قيل لي أنه لم يأت إلى البيت منذ أيام طويلة ، وأنه يمضي وقته بين الجامعة بمدينة بيزيت ومدينة رام الله القريبة منها ولا يأتي للقرية ، لأن الطرق مقطوعة من قبل قوات الاحتلال ؛ والمواصلات صعبة جداً .

كان إيجاد بلال في تلك الفترة مشكلة بحد ذاتها ؛ فهو لا يملك جهاز اتصال نقال ولا مكاناً ثابتاً يسكن فيه ، ولأن بلال كان يحصر علاقاته في الجامعة إلا مع أبناء القرية بشكل عام ، لكنني ولأني قد حسمت أمري بقتال الصهاينة كان واجباً عليّ أن أجده للأسباب التالية :

أولها : أن بلال يتتمى لكتلة حماس الطلابية في الجامعة ، وهو شخص هادئ وصامت وصادق .

ثانيها : لأنني أثق به من الناحية الأمنية والأخلاقية ، فبلال لم يكن له أي اهتمامات سوى الدراسة والعمل التنظيمي .

وثالثها: وهو الأهم والأقوى هو أنني استطعت أن أمسك بلال متلبساً وهو يقوم بإحدى أعمال المقاومة .

ففي أول أيام الانتفاضة قام بلال مع مجموعة من أنصار حركة حماس بكتابة شعارات على جدار القرية وأسوارها ، ولكن ما لم يكن في حسابهم هو أنه رغم قيامهم بهذه الفعلة في جوف الليل ؛ إلا أن إحدى كاميرات المراقبة المثبتة بشكل غير ظاهر على أحد المحال التجارية التابعة لي قد صورتهم ، ورغم أنهم ملثمون إلا أنهم كانوا يتحدثون ويدذكرون أسماء بعضهم البعض ، ولسوء حظ بلال أنه كان المسؤول عن تلك المجموعة وكان ذا جسد ضخم بشكل واضح مما جعلني أتعرف عليه صورةً وصوتاً وأسماً .

ولذلك كنت أريد بلال وأريد ما يملكه ، أما ما يملكه فلم أكن أملكه أنا ولم أستطع امتلاكه حتى بعد سنوات من قتالي ضد العدو الصهيوني .

وهنا عدت إلى منزلي ، قلعة أبي ؛ جدك ، لاستبدال سيارتي بسيارة أخرى قادرة على السير في طرق جبلية وعرة وطرق ترابية لاتمكن من الوصول إلى رام الله .

ما لا تعلمينه يا ابتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس هو أنني كنت أملك في تلك الفترة عدداً من السيارات المتنوعة ، فالسيارات كانت إحدى هواياتي سواء بإصلاحها وتحديثها أو قيادتها ، وعندما أقول قيادتها أعني السرعة والاستعراض ، فلأنني كنت أعمل ميكانيكيّاً في طفولتي ، ولأنني كنت أمتلك كراجاً لصيانة السيارات بعد إنتهاءي للدراسة الثانوية الميكانيكية ، فقد كنت أمضي أوقات فراغي من العمل الذي كان قليلاً جداً في تلك الفترة ، كنت أمضيه بممارسة هواية سباق السيارات المعروفة باسم (Speed test) ولا أذكر أنه مرّ شهر واحد على دون أن أتعرض للمخالفات المرورية بسبب السرعة الزائدة أو بسبب قيادي بشكل متهور .

أما الأهم في موضوع قيادة السيارات فهو أنني أصلاً لم أكن في تلك الفترة أملك رخصة القيادة السيارة ، فلقد كان عمري ما بين الخامسة عشر والثامنة عشر ، ولكنني وبسبب حبي للقيادة قمت بتزوير أول بطاقة في حياتي وهي بطاقة رخصة القيادة ، لم يكن تزويرًا صعباً ؛ ولكنه لم يكن سهلاً أيضاً ، ولكنني ما إن بلغت عامي الثامن عشر حتى استخرجت بطاقة لرخصة القيادة المحلية والدولية أيضاً ، ومع ذلك كنت في بعض الأحيان أضطر لاستعمال إحدى الرخص المزورة ؛ عندما يتم حجز رخصتي القانونية بسبب طريقة قيادي .

ففي بداية عام ٢٠٠٠ قمت بشراء سيارة حديثة صنعت في نفس العام ؛ ولكنني بدل أن أقودها أبقيتها لما يزيد عن شهر ونصف في إحدى محالى التجارية وهو محل يشبه الكراج ، كنت أقوم فيه بصيانة سياراتي ، وبعد مضي شهر ونصف كنت أنهيت تعديلاتي على محرك تلك السيارة وحولته إلى طاقة حenerative أعلى وأقوى ، واستبدلت عدداً من قطع تلك السيارة الجديدة التي لم تسر على الشارع بعد بقطع آخر تحولها من سيارة عادية إلى سيارة رياضية قوية جداً ، لكنها خفيفة الوزن أيضاً ، فلقد أزالت منها عدداً من القطع التي اعتبرتها ثانوية وثقيلة وتضعف المحرك؛ مثل مكيف السيارة وكامل تجهيزات التدفئة ، ولك أن تخيلي كيف أصبحت السيارة.

هنا يا ابتي العزيزة أجده نفسي أقفز من ذكريات قديمة إلى ذكريات أقدم ، فموضوع السيارات وقيادتها كان هو السبب والداعي وراء تعلمي وإتقاني للتزوير ، في البداية كان تزوير رخصة القيادة ، ولكنني بعد ذلك وعندما سافرت إلى كوريا أدركت أن جواز سفرى الأردني غير مرحب به في العديد من الدول ، ولكي لا أبقيه عائقاً أمام رغبتي بالنجاح في المجال التجارى فلقد دخلت عالم تزوير الأوراق والبطاقات والجوازات، ولأنى كنت لا أثق بأحد ؛ فلقد أخذت على عاتقى القيام بذلك لوحدي وبمساعدة أفضل الأجهزة الإلكترونية الخاصة بذلك المجال.

أما إن سألتني هل قمت بالاتجار بتلك الأوراق والهويات ؛ فأقول لك لا وألف لا ، فكل ما كنت أسعى إليه من خلال تلك الأوراق المزورة هو سهولة الحركة والتنقل ، وما ساعد على ذلك هو إجادتي لأربع لغات ، إجاده أبعدت عنى الشكوك وسهلت علي اتحال تلك

الشخصيات ذات الجنسيات واللغات المختلفة والمتنوعة .

أعود بك يا ملاكي الحارس من تلك الذكريات البعيدة جداً إلى البحث عن ذكريات أقرب وهي البحث عن بلال ، استبدلت سياري بأخرى وانطلقت سالكاً الطرق الجانبيه الترابية الوعرة باتجاه مدينة رام الله .

وصلت ليلاً فما كان مني سوى التوجه لمدينة القدس ؛ إلى شقتي هناك التي كنت ما أزال أحفظ بها حتى تلك اللحظة ، رغم الدمار والخراب الذي شاهدته في طرق وشوارع مدينة رام الله ؛ إلا أن مدينة القدس لم يكن بها من ذلك الخراب شيء .

أمضيت ليلتي ساهراً ومبحراً في الشبكة العنكبوتية منطلاقاً ومتلمساً متاهاتها ومكتشفاً موقع العدو الصهيوني من خلال تلك الشبكة ومن خلال اقتحام مواقع شركات الاتصال .

نمت عدة ساعات وتوضأت متوجهاً إلى الأقصى لأصلي صلاة الفجر ، وصلت ولكنني لم أصلّ ، وصلت للبوابة تلو البوابة لكنني مُنعت من الدخول للصلاة رغم جوازي الأجنبي ، قالوا : " لا صلاة للمسلمين اليوم ، أغرب عن وجهنا " ، حاولت وجادلت وأصررت ولكنهم رفضوا وبأعقاب البنادق على جسدي انهالوا ، ورغم قوتي الجسدية إلا أن بنادقهم الموجهة نحو مهددةً إياي ، وأعقاب بنادق أخرى خطّت آثارها على جسدي ، فما كان من ذلك الجسد إلا أن سقط أرضاً من شدة الألم ؛ سقط مضرجاً بالدماء .

حملني بعض من كانوا في المكان ممن لم يسمح لهم بالدخول للصلاة ، حملوني إلى

بيت قريب فضmedوا جراحي ، وتوقفت دمائي عن النزف ، بعد ساعات قليلة ودعتهم رغم ألم الجسد ، لعلي أتمكن من عقاب المحتل الصهيوني على ألم النفس والروح ؛ ألم الكرامة ؛ ألم أن أضرب وأمنع من أداء صلاتي لربني .

وهنا يا ابنتي الحبيبة سوف أضيف إلى قاموس كلماتي وقاموس كلمات المقاومة كلمة خاصة بي أنا وهي ، الكلمة التي أعتبرها الوصف الكامل المتكمال لما قمت به ؛ بل هي الدافع المجهول بالواجب الجهادي ، تلك الكلمة قد تمر عند البعض مرور الكرام ، فهي تعتبر ضعيفة ولا تعتبر من الكلمات الرنانة التي ترددتها ألسنة الثوار والمواطنين مثل كلمة "الانتقام" ، وكلمة "الثأر" وكلمة "الإبادة والسحق" ، كلمة كانت أبسط من ذلك بكثير وأعمق من ذلك بكثير.

"العقاب" ، العقاب هو تلك الكلمة التي تصف ما أريد القيام به تجاه عدو ، لا أريد أن أثأر لنفسي ولا للجرحى والشهداء ، ولا أريد أن أنتقم ؛ فالانتقام أعمى ويعمى صاحبه ، والثأر أعني ما هو إلا رد فعل سريع متھور ، وهنا أقول أن كل الثورات تمر بعدة مراحل :

أولها : البداية ، ويُطلق البداية عادة إما شخص مجئون متھور أرعن وإما شخص عقري حكيم .

ثانيها : الوقود ، فوقود الثورة إما أن يكون من أشخاص شجعان ذوي رؤية واقعية بالثورة والمقاومة ، وإما أن يكون من أناس بسطاء مشوا مع الموج دون أن يدرروا وإذا بهم وقود للثورة وهذا هو حال الأغلبية .

ثالثها : الخاتمة ، وتحتتم الثورة عادةً من قبل نوع واحد فقط لا غير ، نوع لا ثاني أو ثالث له ، وهو النوع الانتهازي المتسلط ؛ النوع الذي كان يرقص على دماء الشهداء من خلال تصريحاته النارية صباحاً ، وسيراً وعربدةً ليلاً .

ولذلك قررت أن أسلك طريق العقاب ، رحت أدمج بين المرحلة الأولى والثانية وأنا أدعو الله أن أستشهد قبل أن أصل إلى المرحلة الثالثة وهي نهاية الثورة والمقاومة .

عدت إلى شقتي بالقدس ، ومكثت فيها عدة أيام حتى التأمت جراحني نوعاً ما ، طوال تلك الأيام كنت أجلس على شرفة الشقة صامتاً هائماً في ملکوت الله ، أفكر بأي نوع من العقاب لأنزله بذلك العدو المحتل ، لم أقترب من جهاز الحاسوب ولا من أي جهاز آخر ، كل ما فعلته هو أنني اقتربت من نفسي أكثر فأكثر ، فعرفت مكامن قوتي ومكامن ضعفي ، فأدركت أن المال والعلم والقوة الجسدية لا تكفي وحدها لبدء المقاومة ولبدء السير على طريق المهندس .



عدت إلى رام الله باحثاً عن بلال ، علمت أنه هناك بمنطقة اسمها "البالوع" بإحدى طرق رام الله ، هناك كان يلقى الحجارة هو وعدد من أصدقائه في الجامعة ، هناك بمنطقة البالوع كان مئات الشبان والشابات والأطفال يلقون الحجارة .

أوقفت سيارتي على إحدى التلال المطلة على ذلك الموقع فشاهدت كم نحن الفلسطينيين طيبون مساكين ! بل كم نحن طيبون لدرجة البلاهة والسداجة ! في ذلك اليوم وبسبب ما شاهدته قررت ورسمت من داخل سيارتي وأنا جالس بداخلها جسدياً وخارجها روحياً ، قررت أصول المعركة !

في ذلك اليوم كان ملقو الحجارة عدة مئات يلقون ويلقون ؛ أما الجنود فكانوا عدداً قليلاً جداً لا يتتجاوز الاثني عشر جندياً فقط ، محاطين بالتلل وبجيبيات عسكرية ، لم يكن الحجر قادراً على الوصول لأولئك الجنود رغم قوته وقوه من يقذفه ، فالمسافة بينهم كانت كبيرة جداً ، أما رصاص قناصة الاحتلال فكان يصل ، فسقط العشرات جرحى وقتلوا ، دون أن يصاب جندي واحد ! ومن خلال جهاز المنظار الذي كان بحوزتي أقسم أنني كنت أشاهد الجنود يضحكون ويمرحون ؛ وشباب الحجارة يتلمون ويُقتلون .

حلت ساعات المساء فتفرق الشباب بين شهيد وجريح ومرهق ، وعادوا إلى بيوتهم بعد أن أقسموا على الرجوع في اليوم التالي ، لم أر بلالاً لكنني رأيت قريباً لي يمشي مع عدد من أصدقائه ؛ فسألته عن بلال فقال لي أنه لم يأت اليوم كعادته ؛ بل عاد إلى القرية ليستجمع قواه فلقد تعب من المواجهة المستمرة منذ عدة أسابيع ، عرضت عليه أن أوصله للقرية فقال لي أنه

يريد البقاء بمدينة رام الله ، فودعته وانطلقت عبر طريق فرعى ترابي وعر عائداً وحدي إلى قريتي بيت ريم ، متوجهاً إلى منزل عمى ، هناك وجدته جالساً لوحده هائماً في ملوكوت الله .

جلست بجواره وبدون مقدمات ، قلت له : " ألم تتعب من إلقاء الحجارة طوال الانتفاضة الأولى عندما كنت طفلاً وعندما أصبتَ فقدتَ إحدى كليتيك؟ أو أنك تريد مواصلة إلقاء الحجارة في هذه الانتفاضة أيضاً؟ ألا تريد أن تتعاقب من سلب منك أرضك؟ " ، صمت قليلاً ، وقال : " أنت يا عبد الله مسكون ، جئت من خارج فلسطين ولا تدرك كم نعاني من نقص في كل شيء ؛ بل حتى أتنا لا نملك شيئاً من أجل مقاومة الاحتلال سوى الحجارة ؛ الحجارة فقط هي ما نملكه ولا شيء سواها " ، قلت : " قل لي ماذا تقصد بسواها؟ " ، صمت وقال : "كل شيء ؛ كل شيء" ، قال لي : " أتعلم أنه رغم أنني في عامي الرابع والأخير من دراستي في الجامعة لا أملك ثمنأجرة الحافلة للوصول إلى جامعتي وإلى رام الله لألقي الحجارة؟ ! كيف تعلم وأنت تملك بدل السيارة ثلاثة بل أربعاً ! " ، صمت قليلاً وأكمل : " نريد قائداً يعد الخطط ويرسمها ويقود المقاومين إلى دروب الجihad والمقاومة " ، صمت طويلاً جداً ، فقلت له : "حسناً ماذا تملك أنت؟" ، فكرر: " قلت لك لا شيء ؛ لا شيء أبداً أبداً ! " .

قلت له : " ألا تملك الرجال؟ ! الرجال القادرين على مواجهة المحتل بصدور عارية؟ ! ألم تكن قبل أسبوع تقود أولئك الشبان لتملؤوا جدران القرية بالشعارات ليلاً؟ " ، صمت ، فقلت له : " لقد رأيتك أنت من قادهم ومن ملأ جدران القرية بأقوى الشعارات التي تنادي بالمقاومة المسلحة ، ألم تكتب أن بركان القسام قادم؟ ! " .

وَدَعْتَهُ بَعْدَ أَنْ طَالَ بِنَا النَّقَاشُ وَبَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنْ بِلَالَ الْبَرْغُوثِيُّ هُوَ الرَّجُلُ الْمُنَاسِبُ لِكَيْ أَضْعِفَ يَدِيْ يَدِهِ وَلِكَيْ يَبْدأَ الْمَشْوَارَ .

لَمْ أَعْدُ إِلَى بَيْتِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَلَمْ أَعْدُ طَوَالَ عَدَةٍ لِيَالٍ أُخْرَى أَمْضَيْتَهَا وَأَنَا أَعْمَلُ لَيْلَ نَهَارٍ فِي إِحْدَى مَحَالِيِّ التَّجَارِيَّةِ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقْتُ بَابَهُ عَلَيْهِ وَمَكْثَتُ بِدَاخْلِهِ لِأَبْدأَ الْمَشْوَارَ ، مَشْوَارُ الْمَهْنَدِسِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْغُوثِيِّ ، لِأَبْدأَ مِنْ تِلْكَ النَّقْطَةِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ مِنْهَا سَيِّدُ مَهْنَدِسِيِّ فَلَسْطِينِ يَحْيَى عِيَاشَ .

يَحْيَى عِيَاشَ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - اسْتَشْهَدَ عِنْدَمَا فَجَرَ جَهَازُ الشَّابَاكِ الصَّهِيُونِيِّ هَاتِفًا نَقاًلاً كَانَ يَتَحَدَّثُ بِهِ عِيَاشَ ، فُجِّرَ هَذَا الْهَاتِفُ بَعْدَ أَنْ سُمِعَ صَوْتُ عِيَاشَ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ ، فُجِّرَ عَنْ بَعْدِهِ ، وَكَانَ هَذَا الْهَاتِفُ قَدْ وَصَلَ لِلْمَهْنَدِسِ عِيَاشَ عَنْ طَرِيقِ صَدِيقٍ حَصَلَ عَلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ شَخْصٍ آخَرَ كَانَ عَمِيلًاً لِجَهَازِ الشَّابَاكِ ، تِلْكَ التَّفَاصِيلُ لَمْ تَكُنْ تَهْمِنِي ، مَا يَهْمِنِي هُوَ جَهَازُ الْهَاتِفِ النَّقَالِ ، كَانَ جَهَازًا كَبِيرًاً ضَخْمًاً ثَقِيلًاً وَلَمْ أَكُلْ وَلَمْ أَمْلِ ؛ بَلْ قَمَتْ بِشَرَاءِ عَدَدٍ آخَرَ مِنْ نَفْسِ نَوْعِ الْجَهَازِ وَبِشَرَاءِ أَجْهَزةٍ مِنْ نَوْعِ خَاصٍ يَسْتَعْمَلُ مِنْ قَبْلِ الشَّرْكَاتِ الْمُصْنَعَةِ لِذَلِكَ الْجَهَازِ مِنْ أَجْلِ الْفَحْصِ وَالصِّيَانَةِ .

مَا هُوَ إِلَّا أَيَامٌ حَتَّى تَمْكَنَتْ مِنْ إِخْضَاعِ جَهَازِ الْهَاتِفِ النَّقَالِ لِأَوْامِرِيِّ وَطَلْبَاتِيِّ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَمَتْ بِصَنْيَاعَةِ عَدَدٍ مُتَنَوِّعٍ مِنَ الْعَبَوَاتِ النَّاسِفَةِ وَالْأَلْغَامِ الْمُتَفَجِّرَةِ وَالْقَنَابِلِ الْيَدِوِيَّةِ وَعَدَدٍ مِنَ

العبوات الناسفة المستعملة في عمليات الاغتيال .

وهكذا حولت ما قد كتبت على ورق من معلومات ؛ وما كان داخل عقلي من خبرة سابقة؛ وحولت تلك الأدوات التي أدخلتها معى إلى فلسطين قبل قرابة العامين عندما قدمت من عمان ، حولت كل ذلك إلى واقع ملموس .

طوال تلك الفترة من العزلة في داخل المستودع الذي لم أكن أتركه إلا من أجل شراء أدوات أو معدات وطعام وشراب ، كانت عيناي تسترق النظر من بعيد إلى حقيقة المهندس يحيى عياش التي كانت موضوعة على أحد الرفوف العالية في المستودع ، ودون مقدمات وجدت نفسي أنزلاها من هناك وأفتحتها ، بعد أن قلت بسم الله الرحمن الرحيم فتحتها ، كان في داخلها عبوتان ناسفتان مصنوعتان من الحديد الصلب ؛ وكانتا معلقتان في جوانب بمادة الإسمنت الأسود ، وكان يخرج من أحد أطرافها سلك زوجي أبيض مصنوع من النحاس الذي قد تأكل وتلف بسبب الرطوبة وطول مدة التخزين ، وكان هناك ورقة تدل على طريقة الاستعمال ، أما الأهم فهو القرآن الكريم ، كان هناك مصحف قد كتب على صفحاته الأولى : " كن مع الله ولا تبالي " !

قمت بتفكيك العبوات الناسفة بحذر بعد أن عملت على تجميدها بواسطة ثلاجة لتجميد اللحوم كانت موجودة لدى بالمستودع ، وبعد ذلك فككت العبوتين الناسفتين ، فوجدت داخل كل واحدة منها مجموعة من المسامير في كل طرف من الأطراف ، وفي المنتصف وجدت كيساً بلاستيكياً مملوءاً بمادة تعرف باسم "أم العبد" ، عرفت اسمها فيما بعد .

في أحد الأيام التي قضيتها في المستودع صليت الفجر بمسجد القرية ، وعندما كنت عائداً وجدت حماراً أبيض اللون ، حماراً سبق أن أشعل أحد الصبية قبل أشهر النار في ذيله فأصبح بلا ذيل ! وما أن اندلعت الانتفاضة حتى كتب أحد الفتياں كلمة " الموت لشارون " على جانبيه ؛ فأصبح اسم ذلك الحمار منذ ذلك اليوم " حمار شارون " !

لمع في رأسي فكرة فامسكت بـ"حمار شارون" وسقتُه إلى المستودع ، ومن هناك أخذت أحد الهواتف النقالة المفخخة وذهبت راكباً الحمار إلى إحدى قطع الأرض التي يمتلكها والدي وهي أرض القرية المزروعة بشجر الزيتون واللوز ، هناك وضعت الهاتف على رأس شارون الحمار وثبتته جيداً ومن هاتف آخر اتصلت به ففتح الخط بشكل تلقائي ، وبعد أن ابتعدت عن شارون الحمار ، أقصد "حمار شارون" استمعت لصوت أنفاسه عبر الجهاز الآخر الذي كان معني ؛ وهنا أصدرت الأمر من جهازي لينفجر الجهاز الآخر وينفجر معه رأس شارون الحمار .

ولقد كانت تلك أول تجربة حية أجريها في فلسطين ؛ وهكذا أصبح شارون بلا رأس ! فرغم صغر جهاز الهاتف إلا أن المادة التي زرعتها بداخله كانت قوية جداً ؛ بل كانت قوية أكثر من اللازم .

جمعت أشلاء الحمار وكومت كومة كبيرة من الحطب حوله ، كان والدي قد طلب مني سابقاً إحضارها من هناك قبل أيام طويلة لكنني لم أفعل لأنشغالي ، وقامت بإشعال النار وهكذا اختفت آثار هذه التجربة .

بعد ذلك عدت إلى القرية ماشياً على قدميّ ؟ عدت إلى منزل ابن عمي بلال فوجده نائماً يحلم بالمقاومة ، فأيقظته لأحول حلمه إلى واقع حقيقي ملموس ، فبلال البرغوثي كان مسحوراً مفتوناً بالشهيد عياش مثل العديد من أبناء حركة حماس ، كانوا يحلمون بمهندس يعيد للمقاومة عزها ومجدها ، ففي تلك المرحلة أي قبل الانتفاضة الثانية ؛ انتفاضة الأقصى ، كانت أجهزة أمن السلطة الفلسطينية تتسابق بل كانت تتباهى باعتقال كل من يمت لحركة المقاومة الإسلامية حماس بصلة ، وهكذا كانت الحركة واقعة بين مطرقة المحتل وسندان عمالء ذلك المحتل ، ما بين الوقائي والمخابرات من جهة ، وما بين الشاباك الصهيوني من جهة أخرى .

أيقظتُ بلال لأحول حلمه وحلمي إلى واقع ملموس ، توجهنا إلى مستودعي وهناك وضعت عدة حقائب داخل سيارتي التي كانت هي الأخرى داخل المستودع ، ركبت وركب هو، قلت له : " لا تتكلم ولا تسأل ، انظر وشاهد فقط لا غير " ، وصلنا إلى قطعة أرض أخرى تعود لوالدي وكانت تلك القطعة تقع على الجانب الآخر من القرية ، أوقفت السيارة وحملت الحقائب وسرنا على الأقدام حتى وصلنا إلى الأرض ، فلم تكن السيارة قادرة على خوض الطريق الوعر المؤدي إليها ، وما إن وصلنا حتى بدأتُ أخرج العبوات الناسفة الواحدة تلو الأخرى ، بلال كان صامتاً وأظن أنه كان يظن أنه ما زال يحلم ؛ فلم يكن يقول سوى : " الله أكبر لهذا حلم أم حقيقة ؟ ! " ، فجرت إحدى العبوات بجوار سور صخري فأصبح السور أثراً بعد عين ، وفجرت عبوة موقوتة بمبني كان يستعمله والدي لتخزين أغراضه فأصبح مكان المبني حفرة كبيرة ، فجّرتُ وفجّرتُ وهو يكبر تارةً ويفرك عينيه تارةً أخرى ، بعد ذلك أشرت له بالانتقال لمكان آخر بعد أن جمعت ما يفي من أدوات إلكترونية بعد الانفجارات .

وهكذا أقتلّنا السيارة ولكننا لم نعد إلى القرية ، بل توجهنا إلى سيارة قديمة قد أُلقيت على الطرقات الجانبيّة من القرية ، هناك وضعت عبوة أسلحتها وعن طريق جهاز التحكم عن بعد قمت بتفجيرها ؛ فانفجرت واستيقظت بلال على صوتي وأنا أقول له : " اسمع يا بلال لما سوف أقوله لك بعد أن رأيتَ ما رأيتَ قبل قليل " ، وقصصت عليه قصتي كاملة من أوها إلى آخرها ، وهكذا قررنا أن نتعاون معاً لنكون نواة لخلايا كتائب عز الدين القسام في جامعة بيرزيت برام الله وفي كل مكان نستطيع الوصول إليه .



رغم أن بلال كان يقاوم المحتل منذ أعوام وأعوام إلا أنه لم يكن قد أمسك بالسلاح أبداً، وهذا شيء أذهلني جداً فأخذته بنفسي ذلك اليوم إلى المكان الذي فقد فيه شارون رأسه وأعطيته قطعة سلاح بعد أن دربته وعلمه على طريقة استعمالها ، وهناك على حمار شارون الذي كان الدخان ما زال يتتصاعد منه رغم مرور ساعات على إحراقه ، بدأ بلال يطلق النار لأول مرة في حياته من سلاح ناري .

وعلى الفور اتفقت مع بلال على أن يتلقى عدداً من الأشخاص من أبناء الكتلة الإسلامية بجامعة بيرزيت وغيرها للبدء بتشكيل خلايا مسلحة لكتائب عز الدين القسام .

بدأت أدرّب بلال على قيادة السيارات وعلى استعمال أجهزة الهاتف النقال ، وزودته بعدد منها وبالمال اللازم لنبدأ المشوار ، أما أنا فلقد كنت منشغلًا بأمور أخرى مثل الحصول على الأجهزة الازمة من أجل عمل بطاقات هوية مزورة ، ومثل استئجار عدد من الشقق بمدينة رام الله وغيرها من المدن ، وكانت أقوم بتجهيز كل شقة من تلك الشقق بكل ما يلزم من أجهزة كهربائية وأثاث ، أما الأهم فهو أنني كنت أحول كل شقة من تلك الشقق إلى مركز قيادة متنقل بشكل كامل ؛ بحيث أني كنت أخصص غرفة لتكون مكاناً لصناعة العبوات الناسفة والأدوات الازمة لذلك ؛ وغرفة أخرى لتكون مكتباً للأمور التقنية ، وأهم ما في ذلك أن كل تلك الشقق كانت على أسماء أشخاص وهميين من جهة وحقيقين من جهة أخرى ! فعبر اقتحامي للشبكة العنكبوتية استطعت الحصول على معلومات عن عدد كبير من بطاقات الهوية المسجلة في دائرة الجوازات الفلسطينية التابعة لوزارة الداخلية ، وهكذا كنت أصدر بطاقات ذات معلومات

حقيقة مئة بالمئة ؛ إلا أنها لم تكن تحمل صور أصحابها بل صور عبد الله البرغوثي ! صوري أنا ! فأنا الذي كان يتوجه لأصحاب الشقق من أجل استئجارها والحصول على عقد الإيجار الذي يسجل باسم شخص آخر .

لم أكن أختار أناساً بشكل عشوائي ؛ بل كنت أنتقي أصحاب المهن البعيدة عن الشبهات مثل مهنة الطبيب المسيحي مثلاً أو الصيدلاني ابن طائفة السمرة ببابل ، وأكثر ما كنت أستعمل كانت مهنة المحامين ومعلمي المدارس .

أما ما يخص الهويات التي كنت أستعملها للتنقل بين المدن ؛ فلقد كنت أستعمل هويات من نوع آخر ، هويات مقدسية أو هويات لبناء الطائفة الدرزية وبخاصة لأولئك المنخرطين في صفوف جيش الاحتلال الصهيوني ، ولكي أسهل تنقلني اشتريت عدداً من السيارات ذات اللوحة الإسرائيلية الصفراء ، وبذلك كنت أتنقل بسهولة جداً بين المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وبين القدس والمدن المحتلة داخل فلسطين مثل تل الربيع (تل أبيب) وغيرها .

وهنا يا ابتي الحبيبة ويا ملاكي الحراس أصبحت أكرّس كل وقتى لإعداد البنية التحتية للمقاومة ، مما جعلني أبتعد عنك وعن والدتك كثيراً ، بل إن جدك بدأ يشك وبدأت تلوح بين عينيه أسئلة كثيرة جداً ، وخاصة أنه في أحد الأيام وبينما كنت في مدينة نابلس دخل على أحد المستودعات التجارية لتفقده بسبب انقطاع التيار الكهربائي فوجد الأطعمة المحفوظة في الثلاجات قد تلفت ، فأخرجها وألقاها في حاوية القمامه ، أما الأهم فهو أنه ألقى مواداً متفجرة كانت محفوظة في علب مغلقة بتلك الثلاجات ، ولو لا ستر الله عز وجل لحدث ما لا يحمد

عقباه ، ووْجَدْ جَدْكَ فِي ذَلِكَ الْمَسْتَوْدَعِ عَدْدًا مِنْ قَطْعِ السَّلَاحِ مُخْبَأً بِحَقْيَةٍ عَلَى أَحَدِ الرَّفَوْفِ ،
مَا جَعَلَ نَاقُوسَ الْخَطَرِ يَدْقُعُ عَنْدَ جَدْكَ ، وَكَمَا سَبَقَ أَنَّهُ انتَظَرَنِي عَنْدَ مَدْخَلِ الْقَرْيَةِ قَبْلَ أَعْوَامٍ
خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ قدْ اعْتَقَلْتُ عِنْدَمَا دَخَلْتُ فَلَسْطِينَ ؛ انتَظَرَنِي هَذِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ أَنِّي
قَدْ سَرَتْ عَلَى دَرْبِ طَالِمَا حَلَمْتُ بِأَنْ أَسْيَرَ عَلَيْهِ ، وَمَا إِنْ عَدْتُ حَتَّى قَالَ لِي : " أَهْلًا بِالسَّيْفِ ،
أَهْلًا وَسَهْلًا بِالسَّيْفِ ، أَلَمْ أَقْلِ لَكَ أَنَّ السَّيْفَ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَصْبِحَ مَحْرَاثًا أَبْدًا " ، عَلِمْتُ مِنْهُ مَا قَدْ
حَصَلَ ؛ فَتَوَجَّهْتُ مُسْرِعًا لِحَاوِيَةِ الْقَمَامَةِ لِأَسْتَعِيدَ الْمَوَادِ الْمُتَفَجِّرَةِ الَّتِي وَبِحَمْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَجَدَتْهَا عَلَى حَالِهَا .

قَلْتُ لَهُ : " اسْمَعْ يَا وَالَّدِي ، لَقَدْ آنَ الْأَوَانَ لِأَخْوَضَ الْمَعرِكَةَ الَّتِي طَالِمَا حَلَمْتُ بِهَا
وَتَمَنَّيْتُهَا ، ادْعُ لَيْ بِالتَّوْفِيقِ وَالنَّجَاحِ ، فَأَنَا يَا وَالَّدِي قَدْ قَرَرْتُ أَنْ أَتَرَكَ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةَ وَأَفَاتَلَ لِعَلِيٍّ
أَسْقَطَ شَهِيدًا أَوْ أَنْتَصِرَ ، الْمَهْمَ يَا وَالَّدِي هُوَ أَنِّي وَاثِقٌ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنِّي قَبْلَ أَنْ أَصْبِلَ لِإِحْدَى الْحَسَنَيْنِ ؛
سُوفَ أُسْقَطَ الْعَشْرَاتِ وَالْعَشْرَاتِ مِنْ قَتْلَى الْعَدُوِّ ، يَا وَالَّدِي أَنْتَ كُنْتَ تَنْوِي السَّفَرَ إِلَى عُمَانَ
بَعْدَ مَوْسِمِ الْرِّزَيْتُونِ وَالْمَوْسِمِ قَدْ اَنْتَهَى ، فَسَافَرَ يَرْعَاكَ اللَّهُ وَلَا تَنْسِنِي مِنَ الدُّعَاءِ " .

وَدَّعَنِي وَالَّدِي وَسَافَرَ إِلَى عُمَانَ ، أَمَا أَنَا فَلَقَدْ قَلْتُ عَدْدَ جَمَلٍ ؛ قَلْتُهَا أَهْجُوَ الدُّنْيَا ؛ دُنْيَا

الفناء :

عُودِي أَوْ لَا تَعُودِي فَلَسْتُ مُبَالِيًّا *** ما عَادَ قَلْبِي يَحْبُكَ مَعْلَقًا
وَمَا عَدْتُ بِعُشْقِكَ هَائِمًا *** فَأَنْتَ الْوَهْمُ لَا الْحَقِيقَةَ حَتَّمًا
فَزُوَّالًا مَصِيرُكَ حَكْمًا *** أَلَمْ يَهْبِطْ إِلَيْكَ آدَمَ

من جنة الخلد ماشياً *** لما قطعت يده تفاحةً
فأنت الدنيا وأنا لست بقاطع *** من متعاك الحقير شيئاً
فلقد وهبت روحي لربِّي موحداً *** قاصداً الجهاد والشهادة مسلحاً
فأنا بحب كتائب القسام متيم *** وبعشق فلسطين والقدس مغرم
ودرب جنة الخلد قاصداً *** وعلى ترك دنيا الفساد عازماً
فأعني يا ربِّي وكن لأمرِي ميسراً *** وأدخلني جنتك صائماً مصليناً
ربِّي رفعت يديّ لك داعياً *** فأنت ربُّ الخلق وربُّ محمد
فاجعل القرآن بقلبي حرزًا *** وسنة المصطفى نبيك منارةً
فبلا عنك أعود عاصياً *** لدنيا الفساد والإفساد مخالفًا
فأوصلني لدرُّب المقاومة قويًا *** فأنا بالشهادة وبجنة الخلد مبشرًا

ما إن وصل والدي لعمان ، حتى قمت ببيع المحال التجارية التي كنت أملاكها وبتصفية
كافة أعمالِي التجارية ، ولم أكتف بذلك بل سحبت كل ما كنت أملكه من مال في البنوك ،
وفتحت حساباً مصرفيًا خاصاً لزوجتي ووضعت فيه بعض المال الذي يكفي لها ولَّك يا ابتي
لكي تحيا حياة كريمة إذا ما استشهدت .

في تلك الأثناء كان بلال قد انتهى من انتقاء عدد من العناصر المناسبة لنبدأ مشوارنا
بدرُّبِ الجهاد والمقاومة ؟ درب عياش والياسين ؟ درب عز الدين القسام ، من خلال كتائب عز
الدين القسام .

وهنا أقول لك يا ابتي يا ملاكي الحارس أني لن أخوض في تفاصيل هذه الفترة لأسباب عديدة منها أني يا ابتي أمضيت ستة أشهر كاملة في زنازين التحقيق دون أن أكشف عن أي شيء عن تلك الفترة التي امتدت لأعوام ، ولكنني قبل أن أعتقل كنت قد حصلت على ما يسمى لوائح الاتهام التي قدمت بحق من عملوا معي ، فأنا يا ملاكي الحارس قد رأيت الموت وكلمته وصارعه في جلسات التحقيق التي كسرت خلاها عظامي ؛ ولكن لم تكسر بها بوابة الدخول لأسراري ، تلك الأسرار التي لا زلت أقبع هنا في زنزانة العزل الانفرادي الجائر لأنني ما زلت أحافظ بها مدفونة في عقلي ، ومنذ أن توقف التحقيق معه لكنه لم ينته منذ قرابة أعوام عشر ، فأنا يا ابتي متهم من قبل قوات الاحتلال بأنني قمت بتنفيذ مئة وثمانية عشر عملية ضد العدو الصهيوني خلال مشواري الجهادي ، بل إنني خلال الأعوام الماضية تم اقتيادي للتحقيق أربع مرات على عدد من القضايا الأمنية الجهادية التي حدثت بعد أسرني بادعاء أن لي يداً بها ! رغم وجودي في العزل الانفرادي الخاص إلا أنني ما زلت حالة خاصة جداً في نظر ذلك العدو الصهيوني ! حالة مستمرة بالمقاومة رغم الأسر ؛ رغم أنف السجّان ورغم أسوار السجن ! فهناك يا ابتي عدد من الملفات الأمنية التي لم تفل بعد ولم يتمكن عدوه وعدو فلسطين من حلها بعد وكشف أسرارها ، وبإذن الله لن يتمكن .

أما ما سوف أطرق إليه خلال كتابتي لك فهو يخص بعض أهم المراحل المفصلية التي مرت بها كتائب القسام بالضفة الغربية والقدس الشريف ، تلك المراحل التي تمكنت خلالها الكتائب من تمرير أنف العدو بالوحل ، وهي أيضاً من رفعت اسم ومصداقية حركة حماس عالياً في السماء ، وأعادت لها مجدها ومجد يحيى عياش .

وهنا سوف تختلف طريقة كتابتي عن السابق بحيث لا تصبح سرداً للأحداث ، بل إضاءات على واقع ومراحل قد مرت معي ، وهنا سوف أسمى كل مرحلة باسم من أضاءها ، سواء كان شهيداً أو أسيراً أو محرراً أو كان بلا اسم ظل حراً ولم يعتقل ولم يستشهد ، وسوف تكون أول تلك المراحل هي التالي :



الشهيد القسامي البطل عز الدين المصري

وهنا قبل أن نصل للشهيد عز الدين المصري يجب أن نسلط الضوء على طريق وعر نوعاً ما ؛ فبعد أن نفذنا عدة عمليات خاطفة ضد العدو عبر الخلايا التي عملنا على تشكيلها أنا وبلال البرغوثي ، طلبت من بلال أن يوصلني لمسؤولي القسام بمختلف مدن الضفة الغربية والقدس المحتلة ، فكان من أولئك المسؤولين مهندس فذ ذكي بل عقري اسمه "أيمان حلاوة" وكان هذا المهندس قد تحرر من الأسر منذ مدة قصيرة جداً ، ولم يكن قد شارك بالعمليات المسلحة ، إلا أنه ومع اندلاع الانتفاضة بدأ العمل مع عدد من أصدقائه الأسرى المحررين أمثال المجاهد البطل العنيد "سليم حجي" وكذلك المجاهد "علي علان" ابن مدينة بيت لحم ، فذهبت إلى مدينة نابلس لأنتقى بسلام حجي الذي صحبني للقاء أيمان حلاوة ، كنت أرغب من خلال ذلك اللقاء أن أنقل الخبرة الموجودة لدى إلى الإخوة في مختلف المناطق ، وهكذا اجتمعت مع أيمان حلاوة واستعرضت أمامي إمكانيات الحركة في تلك الفترة بمدينة نابلس ، فكانت صدمتي كبيرة جداً ، فرغم أنني كنت أمام مهندس عقري بكل ما تحمل الكلمة من معنى ؛ مهندس فذ ذي موهبة واضحة جداً ، إلا أنه بسبب مكوته لمدة طويلة جداً في الأسر الصهيوني ، كان قد ابتعد عن الأمور التقنية الحديثة وظل يستعمل نفس المواد والأدوات التي استعملها يحيى عياش قبل استشهاده .

وسرعان ما تمكّن أيمان حلاوة من مجاراتي ، بل والتفوق علي بما صنعته وابتكرتُه ، فلقد

كان سريع التعلم وسريع البداهة ، فما أَنْ كُنْتْ أَرِيهِ مُخْطَطًا إِلَكْتْرُونِيًّا حَتَّىْ يَقُومْ بِفَكِ رَمُوزِهِ وَجَمْعِ خَيُوطِهِ ، وَهَذَا تَمْكِنْتُ بِفَضْلِ ذَكَاءِ الْمُهَنْدِسِ أَيْمَنْ حَلاوةَ مِنْ نَقْلِ كُلِّ خَبْرِتِي فِي مِجَالِ الصُّنُاعَاتِ الْعَسْكُرِيَّةِ لِعَدْدِ كَبِيرٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَنَاطِقِ الْمُحِيطَةِ بِمَدِينَةِ نَابُلُسِ .

أَمَا أَيْمَنْ حَلاوةَ فَلَقَدْ قَالَ لِي بَعْدَ أَوْلَى لِقَاءٍ : " أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ هَلْ أَنْتَ تَنْتَمِي لِهَذَا الْعَالَمِ أَمْ لِعَالَمِ الْمُسْتَقْبِلِ؟ ! قَلْ لِي بِاللَّهِ عَلَيْكَ هَلْ أَتَيْتَ إِلَى نَابُلُسِ عَبْرَ آلَةِ الزَّمْنِ؟ ! " ، فَمَا كَانَ مِنِّي سُوَى أَنْ ابْتَسِمْ وَقَلْتُ لَهُ : " أَنَا ابْنُ هَذَا الزَّمْنِ ؛ وَلَكِنِّي لَسْتُ ابْنَ هَذَا الْمَكَانِ " ، فَقَالَ : كَيْفَ؟ قَلْتُ : " أَنَا لَمْ أُولَدْ هَنَا وَلَمْ أَتَعْلَمْ هَنَا ؛ فَقَدْ وُلِدْتُ فِي الْخَارِجِ وَدَرَسْتُ الْهِنْدِسَةَ فِي كُورِيَا وَاسْتَقِيَّتُ عِلْمَيِّي مِنْ بَحْرِ مَرَاكِزِ الْبَحْوثِ الْعَلْمِيَّةِ وَمِنْ شَبَكَةِ الْإِنْتَرْنَتِ ، أَمَا أَنْتَ يَا صَدِيقِي فَلَقَدْ مَنَعْتُكَ قِيُودَ الْأَسْرِ وَقَضْبَانَ السَّجْنِ مِنْ أَنْ تَكْمِلَ مَا بَدَأْتَهُ فِي جَامِعَتِكَ ، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، وَلَكِنَّكَ خَلَالِ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ اسْتَطَعْتَ الْلَّاحِقَ بِي ؛ بَلْ اسْتَطَعْتَ تَجَاوِزِي فَأَنْتَ مُهَنْدِسٌ مُجْتَهِدٌ ، أَمَا أَنَا فَمُهَنْدِسٌ كَسُولٌ لَا أَجْتَهِدُ إِلَّا إِذَا وَاجَهْتُ مَشْكُلَةً وَعِنْدَ ذَلِكَ أَجْتَهِدُ لِأَجْدَهَا حَلًا ، حَتَّىْ أَنِّي لَا أَنَامُ أَيَّامًا طَوِيلَةً حَتَّىْ أَجْدَ الْحَلَّ " ، فَقَلْتُ لَهُ : " أُعْطِيَكَ مَثَلًاً ؛ مَا هِيَ أَكْبَرُ مَشْكُلَةٍ تَوَاجَهُهَا أَنْتَ وَتَعْتَقِدُ أَنَّ حَلَّهَا صَعْبٌ بَلْ أَنَّ حَلَّهَا مُسْتَحِيلٌ؟ " قَالَ : " حَالِيًّا وَمَعَ مَا زَوَّدْتُنِي بِهِ لَا أَظُنُّ أَنَّ هَنَاكَ أَيَّ مَشْكُلَةٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، أَمَا إِنْ سَأَلْتَ عَنْ مَشْكُلَةٍ أَبْحَثْ لَهَا عَنْ حَلٍ فَهُنَاكَ وَاحِدَةٌ أَبْحَثْ لَهَا عَنْ حَلٍ مِنْذُ أَعْوَامٍ وَأَعْوَامٍ " ، وَأَشَارَ إِلَى إِحْدَى الْأُورَاقِ أَمَامَهُ ، قَالَ : " هَذِهِ الْوَرْقَةُ هِيَ الْمَشْكُلَةُ ! " ، وَأَكْمَلَ : " كَيْفَ أَسْتَطِيعُ إِرْسَالُ هَذِهِ الْوَرْقَةِ الَّتِي كَتَبْتُ عَلَيْهَا أَحَدُ الْبَيَانَاتِ الَّتِي قَمَنَا بِهَا فِي عَمْلِيَّةِ الْأَمْسِ دُونَ أَنْ يَكْشِفَ أَمْرَنَا؟ حَيْثُ يَوْجُدُ بِجُوارِ كُلِّ وَكَالَّةٍ لِلْأَنْبَاءِ أَلْفُ عَمِيلٍ وَعَمِيلٍ ، وَأَلْفُ رَجُلٍ أَمْنٍ مِنْ رِجَالِ جَهازِ الْأَمْنِ الْوَقَائِيِّ وَالْمَخَابِراتِ ، قَلَ

لي هل تستطيع جعل من يوصل هذا البيان خفياً لا يُرى؟ هل تملك طاقة تمكنا من أن يصبح شيئاً؟" ، ضحكت وقلت : "طبعاً أملك، ألا تعلم؟!" ، ضحك هو ولكنه سرعان ما أدركني لم أكن أمزح فقال : "كيف؟ وعن أي طاقة قة تتحدث؟" ، قلت : "أعود لك بعد أسبوع أو اثنين وأحضر لك الحل والطاقة" .

ودعته ولكنه استوقفني على الباب وقال: "بالله عليك عندك الحل؟" ، قلت : "ادع الله عز وجل أن أجده الحل ، دلني على محل بيع القهوة لأنني أظن أنني سوف أحتج إليها لتعييني على سهر الليالي القادمة" ، صافحته وتوجهت من مدينة نابلس جبل النار إلى مدينة رام الله ، رام الله التي أصبحت وكراً لسلطة الفساد والإفساد ، وكرًا للأجهزة الأمنية .

في تلك الفترة لم أكن مطارداً أو مطلوباً ولذلك كانت حركتي سهلة جداً ولأنني معروف على أنني أقوم بالتجارة فلم يكن تنقلي يثير الشبهة لدى تلك الأجهزة الأمنية ، حتى بعد أن صفيتُ أعمالي فلم يُثِر ذلك شكوكهم نحوني .

طوال الطريق كنت منشغلًا بالتفكير لإيجاد حل لتلك المشكلة التي لم أجده وقتاً طويلاً لإيجاد سيناريو حلها ، بل أن سيناريوج لها ومض في رأسى أثناء حديث أيمن عنها وهو جهاز الفاكس.

ولكن كيف أحوال جهاز الفاكس من جهاز معلوم مكان إشارة إرساله إلى جهاز مجهول مكان إرساله ومحظوظ الهوية؟ عدت بعد أقل من أسبوعين لأقابل أيمن في نابلس ، هناك على الطاولة أخرجت حقيبة كانت على كتفي؛ جهاز فاكس صغير الحجم ووضعته أمام أيمن حلاوة،

ابتسم بعد أن قلب الفاكس بين يديه وقال : " الله يسامحك ؛ ألا تعلم أنه بمجرد أن نرسل رسالة واحدة من هذا الفاكس سوف يتم مداهمة المكان الذي أرسلت منه من خلال معرفتهم رقم الهاتف عبر أجهزتهم الإلكترونية التي يستعملها جهاز الشاباك؟ " ، قلت له : " هذا الفاكس لا يحتاج لخط هاتف كي يرسل الرسائل ، بل لا يحتاج لأن يوصل بالكهرباء المنزلية أصلاً ، كل ما عليك عمله هو وضع أي ورقة بداخله وهو سوف يرسلها بشكل آلي فوري إلى اثنين عشرة وكالة أنباء دون أن يتمكن أحد من تعقب مكان وجوده ومكان وجود المرسل ، بل إنك إن أردت أن يعمل الفاكس بشكل منتقل فكل ما عليك فعله هو وضع الرسالة بداخله وتركه يعمل لوحده في الوقت الذي نحن نعمل على برمجته فيه " .

قال لي : " بالله عليك ألم تأتِ إلى نابلس عبر آلة الزمن؟ ألم تأتِ إلى هنا منذ عام ٢٠٥٠ أو ٢١٠٠؟ " ، فقلت : " لا بل أتيت من تل الرياح هناك وجدت جهاز فاكس يعمل بالطريقة التي يمكنني التعديل عليها ، فهو لا يحتاج لكمّ كبير من التيار الكهربائي ولذلك قمت بجعله يعمل عن طريق البطاريات ؛ ولكن ليس هذا هو المهم ، المهم هو أنني وعبر جهاز آخر استطعت وصله بجهاز الفاكس ، وحولت إشارة بطاقة الهاتف الجوال إلى إشارة تستعمل في نظام الهاتف الأرضي ؛ ولذلك فإن كل ما يلزمنا لتشغيل جهاز الفاكس بطارية وهي موجودة بداخله وبطاقة هاتف جوال توضع بداخله ، وهكذا تكون حصلت على طاقة الإخفاء ، المهم أن تكون بطاقة الهاتف الجوال مجهولة المصدر وهذا سهل ، أما الأهم هو أن تستبدل تلك البطاقة بعد كل استعمال ، لكي لا يتم تعقبها ، أي مرة واحدة فقط ، وأن نرسل الفاكس من مكان عام بحيث تبرمجه وتضعه في حقيقة شخص متحرك في أي من الشوارع المزدحمة ؛ وبذلك تبقى بعيداً عن

رصد أجهزة العدو لرسائلك ، وكما يقال الحاجة أم الضرر ، فالحاجة لجهاز الفاكس كانت الدافع لصناعته واحتراسه ، وكان ذلك قد حدث في نهاية عام ٢٠٠٠ .

أما ما حدث قبل ذلك فأعتقد أنه أكثر أهمية ، ففي عام ١٩٩٠م أي قبل عشرة أعوام من موضوع الفاكس وقبل اثنين وعشرين عاماً من عام ٢٠١٢م عالمنا هذا الذي أكتب فيه هذه الومضات ، فلقد كان عمري في عام ١٩٩٠م سبعة عشر عاماً ، ولم أكن قد أكملت عامي الثامن عشر ، كنت قد أردت إنشاء ورشة لصيانة السيارات وتصليحها ، ولكنني لم أكن أملك المال اللازم لكي أستأجر الورشة رغم أنني استبدلت بعض المال إلا أنه لم يكفي ، فلقد كانت الورشة تقع في مجمع تجاري وصناعي جديد ؛ وكان صاحب المجمع من ذلك النوع البخيل الانتهازي مما كان أمامي من حل سوى أن قمت بصناعة جهاز للتنصت ولاستراق السمع ، وضفت هذا الجهاز صغير الحجم داخل علبة كبريت وألصقتها أسفل مكتب صاحب المجمع ؛ وبهذه الطريقة استطعت أن أحصل على المعلومة التي مكتنني من استئجار الورشة بالسعر المناسب ، السعر الذي تستحقه لا أكثر ولا أقل .

الحاجة أم الضرر، أما الحاجات التي أصبحت بحاجة إلى حلول فقد كثرت جداً ، وجعلتني لا أجد وقتاً حتى للنوم ؛ فلقد كنت وطوال عدة أعوام لا أنام سوى خمس أو ست ساعات ، وطوال تلك الفترة كان طعامي يقتصر تقريراً على السنديتونس الجاهزة ، أما ما كان يزعجني في تلك الفترة ؛ فترة تلبية الحاجات ، فهو أداء الصلاة ؛ نعم أداء الصلاة ، فلقد كان عقلي مشغولاً جداً مما كان ينسيني عدد الركعات التي صليتها أو نسيان ماذا قرأت من القرآن

الكريم ، و كنت كثيراً ما أعيد الصلاة مرة أو مرتين حتى أتأكد من أنني أديتها بشكل صحيح .

لقد كبرت في تلك الفترة المسؤوليات التي ألقيت على عاتقي ، فلقد كنت دائم البحث عن مصادر لشراء السلاح والعتاد بمختلف أنواعه ، و كنت دائم البحث عن شقق ومخازن تجارية لاستعمالها للسكن ولتخزين المواد الناسفة والسلاح والذخيرة ، أما الشيء الذي كان بمثابة رياضة الاسترخاء لي فلقد كانت المشاركة على رأس أي من الخلايا القسامية المقاتلة لهاجمة موقع صهيوني أو لهاجمة رتل من عرباته المصفحة بالعبوات الناسفة ، فلقد كنتأشعر عند مشاركتي بمثل هذه الكمائن براحة نفسية عظيمة جداً ، كانت هي الدافع لأعاده نشاطي للقيام بالأعمال الأخرى .

في تلك الفترة كنت قد قررت أن نكشف توجيه الضربات " العقابية " للعدو بمنطقة سلفيت وبمنطقة حواره جنوب نابلس ، حيث كان المستوطنون لا يخرجون من تلك المستوطنة أبداً أبداً ؛ إلا بصحبة حراسات مشددة وباستعمال حافلات مصفحة ، فلم يعودوا يستعملون سياراتهم الخاصة خوفاً من الكمائن والعبوات الناسفة .



بعد عدة أشهر قدر الله أن يصاب أيمن حلاوة بحرق في وجهه ورقبته جراء اشتعال مادة تستعمل في الصناعات العسكرية ، مما جعل أيمن وبسبب إصابته يلقي على عاتقي عبء تشغيل عدد من مقاتلي القسام هناك في نابلس ، ولأنني ما زلت غير مطارد فلقد كنت أقضي نصف أسبوع بمدينة رام الله مع بلال والخلايا التي شكلها ؛ والنصف الآخر بمدينة نابلس بمتابعة بعض رجال أيمن حلاوة .

وهنا حدث ما لا تحمد عقباه أبداً ؛ فلقد زاد طغيان العدو الصهيوني وبغيه وغدره ، ولأنه لم يستطع الوصول لقادت القسام ولا لعناصر القسام المقاتلة ، فلقد قام هذا العدو الباغي بتصف مقر مخصص للصحافة والأخبار في مدينة نابلس مما أدى لاستشهاد عدد من الشهداء كان على رأسهم الشهيد جمال سليم وجمال منصور ، وهما أهم قياديين سياسيين بحركة حماس ببابلس بل بمنطقة الضفة الغربية في ذلك الوقت ، وفي ذلك الوقت أيضاً حدث إحدى أهم الانعطافات بمسيرتي الجهادية ؛ فلقد تualaت أصوات الحناجر المشيعة لجثامين الشهداء بالثار والانتقام من العدو ؛ وكانت تلك الحناجر تطالب كتائب عز الدين القسام بالعمليات الاستشهادية ، العمليات الاستشهادية التي أنا شخصياً - عبد الله البرغوثي - لم أكن أفضّلها ، فلقد كنت أفضل المواجهة المسلحة والكمائن والعبوات الناسفة والألغام ، أما العمليات الاستشهادية فلقد كنت أرفض مجرد التفكير بها .

أما أيمن الذي كان يعاني من جرحه فلقد كان يفضل هذا النوع من العمليات ، فطلب مني وألحّ عليّ بل رجاني وحلفني بالله العلي العظيم أن أعمل على التخطيط لإحدى تلك العمليات .

وهنا وبعد تفكير لم يطل كثيراً قررت أن ألبى النداء ، وطلبت من أيمن حلاوة أن يرسل لي أحد الأشخاص الذين يريدون تفجير أنفسهم فسألني : "هل هناك نوع معين من الأشخاص؟ هل تريده مثلاً أن يجيد اللغة العربية ليسهل تنقله ووصوله إلى المكان المستهدف؟" ، قلت له : "أرسل لي شخصاً يرى ما لا أراه ، أرسله بعد أسبوعين إلى أحد مساجد رام الله ؛ وأنا من هناك سوف أتولى باقي الأمور" .

ودعّت أيمن حلاوة واتجهت إلى رام الله ، اجتمعت بلال البرغوثي وقلت له أنا نريد تغيير مهمة إحدى الخلايا القسامية التي تعمل معنا ، فبدل أن تقوم تلك الخلية بنقل العبوات الناسفة من مكان إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى ؛ أريد من تلك الخلية نقل استشهادي ، وعندما قال بلال : "الحمد لله أنك قررت خوض هذا المجال" ، فقلت له : "بالله عليك لا تناقشتني في هذا الموضوع حتى لا أبدل رأيي" ، قال : "حسناً حسناً ، المهم أنك قد قررت خوض هذا المجال ، هكذا تكون مهندساً قسامياً مئة بالمئة ، وبعد الكمامن والاشتباكات المسلحة يأتي دور العمليات الاستشهادية" .

بعد طول تفكير وقع الاختيار على خلية "محمد دغلس" لكي تنفذ هذه العملية ، والسبب الرئيس هو أن "محمد دغلس" كان يملك عنصراً مهماً جداً جداً ، وهو الأخت المجاهدة "أحلام التميمي" التي لم أكن أعلم عنها شيئاً ، وهنا أقصد أني لم أكن أعلم اسمها أو إن كانت شاباً أم شابة ، لكنني كنت أعلم أنه تم اختيارها حسب أعلى المواصفات من حيث التكتم التام والحس الأمني العالي والإيمان الصادق بدرء كتائب عز الدين القسام .

بعد عدة أيام وبعد أن رصدت أحد الأماكن في مدينة القدس أردت أن اختبر الإجراءات الأمنية المتبعة ، لذلك أرسلت عبوة ناسفة صغيرة الحجم لأحلام التميمي من خلال محمد دغلس ثم معاذ ثم بلال البرغوثي ، بلال البرغوثي الذي جُن جنونه عندما قلت له اذهب من قرية بيت ريمى إلى مدينة رام الله لشراء ست علب بيرة ودجاجة مشوية وبعض المكسرات وأحضرها لي في القرية ، قلت له ذلك بعد صلاة الفجر بمسجد القرية فجن جنونه لكن بصمت ودون أن ينطق بكلمة واحدة ، لكن عيونه كانت تقول ما لم يقله لسانه !

انطلق بلال من القرية إلى رام الله مباشرة بعد الصلاة ولأن الحواجز الصهيونية كانت كثيرة جداً وكانت تغلق كل الطرق الرئيسية فلقد استغرق قطع المسافة التي كانت بالعادة لا تزيد عن نصف ساعة ، نصف يوم ! فاشترى العلب ست من البيرة والدجاجة والمكسرات وعاد إلى القرية في نفس اليوم ، أي أنه أمضى يوماً كاملاً ذهاباً وإياباً ، أعطاني ما أحضره لي فشكرته بعد أن أعطيته الدجاجة المشوية ، واحتفظت بالمكسرات وعلب البيرة ، أمضيت عدة ساعات وأنا آكل المكسرات وأجهز العبوة الناسفة التي صنعتها وأخفيتها في قلب إحدى علب البيرة .

وضعت تلك العلبة المفخخة بين العلب الخمسة السليمة بداخل الصندوق المخصص لها ، وعند صلاة الفجر قابلت بلالاً وأعطيته كيساً ما إن حمله حتى قال : " هذه علب البيرة ، لماذا أحضرتها لي ؟ ! " ، فقلت له أنها من النوع الرديء وأنني أريد من يعيدها إلى رام الله ، صمت بلال بغضب قبل أن ينفجر غضبه ، وهو الهدى الملائم ، قلت له أن إحدى تلك العلب مفخخة ؛ وأن المطلوب إيصال تلك العلب لمحمد دغلس ومنه إلى أحد الأحلام التميمي

لكي نزرعها في الموقع الذي قامت هي باستطلاعه ، فحمل العلب مبتسماً مهلاً لأنه أدرك أن موعد تنفيذ العملية الاستشهادية قد اقترب .

كانت عملية "علبة البيرة" أشبه ما يكون باختبار لأعصاب من سوف يقومون بتنفيذ العملية الاستشهادية ، فلقد أردت أن أرى مدى الانضباط والقدرة على العمل تحت ظروف مختلفة عن تلك الظروف السابقة ، فعمليات إطلاق النار ونصب الكمامـن المسلحـة وزراعة العـبـوـات النـاسـفـة عـلـى جـوـانـب الـطـرـق تـحـتـاج إـلـى نوع آخـر مـن المـقاـطـلـين ، أما العمـلـيـات الاستـشـاهـادـية فـتـحـتـاج إـلـى نوع ذـي أعـصـاب حـدـيدـية وـقـدـرـة عـلـى التـحـكـم بـالـمـشاـعـر بـشـكـل كـامـل ومـطـلـق ، وـسـوـفـ أـتـحدـث عـن هـذـه النـقـطـة بـوـمـضـة أـخـرـى شـاهـدـت خـلـاـلـها أـشـدـ مـقاـطـلـي القـسـامـ وـأـقـواـهـمـ عـزـمـاً يـكـونـ وـلـاـ يـكـفـونـ عـنـ الـبـكـاءـ أـثـنـاءـ الـإـعـدـادـ وـالـتـجـهـيزـ لـإـحـدـىـ الـعـمـلـيـاتـ الاستـشـاهـادـيةـ !

حمل بلال البرغوثي صندوق علب البيرة الموضوع داخل كيس بلاستيكي وانطلق إلى مدينة رام الله وسلمه لمحمد دغلس الذي سلمه بدوره للأخت المجاهدة أحلام التميمي ، أحلام التي قامت باستطلاع المكان أولاً قبل أيام معدودة ثم بزراعة العبوة بعد أن مررت بها عبر حواجز الاحتلال من رام الله إلى مدينة القدس ؛ مدينة القدس التي سوف تصبح فيها بعد مركز عملياتي الرئيسي ، هناك في إحدى الأسواق التجارية زرعت أحلام العبوة الناسفة وبعد أن شغّلتها انفجرت العبوة في الوقت المحدد ، لم يكن المقصود إيقاع قتلى أو حتى جرحى في تلك العملية أبداً كما قلت .

نجحت العبوة بزرع الخوف في قلوب الصهاينة بأماكن السوق ، لكن الأهم هو نجاح كامل لعناصر الخلية بأن يحملوا علبة بيرة ، "بيرة" وهي شيء تهابه يد المسلم المؤمن ، لكن انضباطهم وشفافيتهم جعلتني أبدأ بالخطوة الثانية من تلك العلمية .

وهنا توجت إلى رام الله لإحدى الشقق التي كنت أمتلكها هناك للجلوس بعيداً عن صخب الانتفاضة وبعيداً عن إزعاج ولدي "أسامي" الذي ولد بتاريخ ٢٠٠٠/٥/٢٤ م ، ولد وأنا منشغل تماماً عنه ، حتى أني لا أذكر أني حملته بين ذراعي منذ أن ولد وبعدة أشهر ، بل حتى أني لا أذكر تحديداً سبب تسميتي له بـ "أسامي" ، ولكنني أعتقد أني أسميتها أسامي لأن لي أربعة أصدقاء أسماؤهم أسامي ، وأعتقد أن ذلك هو السبب الأرجح ، أما عدم حمي إياه وحتى عدم حضوري يوم عملية "تطهيره" فلأنني كنت دائماً بسفر من مدينة إلى أخرى ومن قرية لأخرى، فلم يكن لي دقيقة لبيتي ولزوجتي ولتالا وأسامي !



في تلك الشقة أمضيتُ يومين وليتين ، وطلبت من بلال أن يذهب لقضاء يومه في المدينة وليلته بشقة أخرى كنت قد استأجرتها على اسم شخص آخر .

في صباح اليوم التالي حضر بلال مبكراً دون أن يعلم أن اليوم هو موعد وصول الاستشهادي "عز الدين المصري" من نابلس إلى رام الله لأحد المساجد ليصلّي هناك ويتنظر شخصاً سوف يأتي ليصطحبه لتنفيذ العملية ، طلبت من بلال أن يذهب إلى المسجد مع محمد دغلس لقاء عز الدين ولكي يقوموا بشراء ملابس تتناسب مع الموقع الذي تم رصده ؛ وهو أحد المواقع التي استطاعت أحلام التميمي في القدس الشريف .

بعد أن أعطيتُ بلال كلمة السر وكلمة التعارف انطلق فأحضر عز الدين المصري وجهاً له الملابس الخاصة ووضعه وتركه أمانة عند محمد دغلس في إحدى الشقق التي استؤجرت لتكون بيتكاً آمناً ، أي بيتكاً لا يوجد في داخله أي شيء أبداً سوى الأثاث والطعام ، أي بيتكاً عادياً جداً ؛ دون سلاح ودون مختبر للمواد الناسفة .

وعاد بلال إلى شقتي فأخبرني بما فعله فقلت له : "حسناً" ، وطلبت منه أن يذهب إلى أحد المحال التجارية المخصصة للآلات الموسيقية ، ليشتري لي قيثارة ، حددت له مكان المحل ومكان القيثارة ولو أنها طلبت منه أن يشتري لها بيتكاً من الجلد ، سألهني : "لماذا قيثارة؟" ماذا تريد أن تفعل بها؟" ، قلت : "أريد أن أعزف عليها فأنا أشعر بالملل" ، بلال رغم أنه عنصر قسامي منضبط إلا أنه كان يُجذب من أجوبتي عليه ، فهي أجوبة غير مفهومة أبداً بالنسبة له ، "ترى قيثارة لتعزف عليها وهناك استشهادي يتظمنا في البيت الآخر على أحمر من الجمر؟!" ،

ذلك ما أراد بلال قوله لكن حسن خلقه وانضباطه جعلاه يقول : "حسناً ، سوف أحضرها على الفور " ، وفعلاً خلال نصف ساعة عاد بلال ومعه القيثارة ، فامضي فترة العصر والمغرب وحتى حلول ساعات الليل المتأخرة أعزف على القيثارة ، وكان بلال يشاهدني بصمت وبصبر ولم يسأل أي سؤال ولم يزعجي رغم إزعاجي له بالحانى المزعجة ! تعب بلال وغلبه النعاس فقلت له : " اذهب لتنام عند محمد دغلس وعند عز الدين المصري ، وعد يوم غد باكراً " ، أمضى بلال ليته مع أخيه بقراءة القرآن والصلوة ، أما أنا فلقد توقفت عن العزف وذهبت للنوم ، فـ " النوم سلطان " كما يقال .

استيقظت على صوت الباب الذي كان يطرقه بلال ، ففتحت له وأجلسته في غرفة الضيوف حيث كنت أعزف ليلة البارحة ، استلقيت على أحد المقاعد متumbaً نعساً وطلبت من بلال أن يحضر القيثارة من الغرفة المجاورة ، وقبل أن أنهي جملتي شعرت أن بلال سوف يقوم بكسر القيثارة ألف قطعة ، فلقد قال لي أنه لم ينم وأمضى الليلة بطولها مع أخيه بالعبادة ، لنتقرب إلى الله لعله يسهل هذه العملية ، ولذلك وقبل أن يصل بلال بباب الغرفة التي كنا نجلس فيها قلت له : " احذر أن تمس القيثارة بسوء وارفعها بحذر شديد جداً جداً ، فالقيثارة مفخخة بمواد ناسفة تكفي لتنسف المبني كاملاً ، احذر بالله عليك وسمّ باسم الله قبل أن ترفعها " ، عاد بلال ووضع القيثارة على الطاولة ، وقال : " لمن القيثارة؟ هل هناك عملية أخرى غير عملية الاستشهاد ؟ ! " ، فقلت له : " لا أبداً ، لا عملية اليوم سوى عملية عز الدين المصري " ، فرد : " أين الحزام الناسف ؟ " فقلت : " الأحزمة الناسفة كان لها زمنها ، أما الآن فزمن " الألحان الناسفة " .

طلبت منه بعد ذلك أن يطلب من محمد دغلس أن يستدعي أحلام التميمي للحضور لمدينة رام الله ، أحلام في تلك الفترة لم تكن تعلم أي شيء مطلقاً ، وفعلاً ذهب بلال لإبلاغ محمد بما طلبه منه وعاد ليجدني نائماً ؛ غارقاً في النوم ، فأنا في الليلة السابقة لم أنم سوى عشر أو خمس عشرة دقيقة فقط ثم قمت لكي أستحم وأبدأ بإعداد القيثارة وتفخيخها ، ولقد استغرق ذلك الليل بطوله ؛ وما أن انتهيت ووضعت رأسي على الوسادة لأنام حتى استيقظت على صوت طرق الباب بالصباح الباكر ، وها أنا أستيقظ على طرقه مرة أخرى ، ليخبرني أن أحلام قد وصلت لرام الله وأن ساعة المساء قد حانت ، تلك الساعة التي أردتها أن تكون في منتصف النهار ؛ أي عند الظهيرة بنفس التوقيت الذي قصفت به طائرات الاحتلال المكتب الصحفي الذي كان بداخله الشهيدان "جمال منصور" و"جمال سليم" ، أردت أن يشهد العالم كله "العقاب" الذي سوف يتلقاه أولئك الصهاينة المحتلون جراء جرائمهم بحق أبناء فلسطين.

أعطيتُ بلال القيثارة وتوجه بها إلى مكان وجود محمد دغلس والاستشهادي عز الدين المصري ، هناك بداخل تلك الشقة قام بلال ومحمد وعز الدين بقضاء عدة ساعات حرجة من الانتظار والترقب ، الانتظار للضوء الأخضر لانطلاق تنفيذ العملية ، فلقد كلفت مجموعة مكلفة بعدة مهام ، منها :

أولاًً : مراقبة المسجد الذي كان من المفترض أن يصل إليه الاستشهادي ، ولقد بدأت تلك المهمة من المراقبة منذ ساعات الفجر الأولى واستمرت حتى ساعات ما بعد صلاة العصر من ذلك اليوم ، وكان تقرير المراقبة يفيد أن الأمور طبيعية مئة بالمئة وأن الاستشهادي وصل

بالموعد المحدد ؛ أي قبل صلاة العصر ، وصلى ثم انتظر بالركن المحدد له بمسجد جمال عبد الناصر بمدينة رام الله ، وبعد ذلك دخل أحد الإخوة ليصطحبه من هناك ، وطوال تلك المدة كانت الأمور هادئة ولم يكن أحداً يتبع أو يراقب أيّاً من الاستشهاديين أو الأخ الذي اصطحبه معه ، ولقد بقينا داخل المسجد وحوله قبل وبعد الوصول والمعادرة ولم نلاحظ أي شيء .

ثانياً : لقد كانت المهمة الثانية تحتوي على جزأين ؛ أولهما متابعة عز الدين وبلال منذ خروجهم من المسجد ومرورهم بالبيوت لشراء الملابس ، ثم مراقبة المنزل الآمن الذي مكث به كل من بلال ومحمد والاستشهاديين عز الدين المصري ، ولقد جيء بتقرير المراقبة الذي وصلني صباحاً وأفاد أن الأمور قد سارت على أكمل وجه ، ولم يكن هناك سوى نقطة واحدة استثنائية جاءت في ذلك التقرير وهي أن أصوات شقة البيت الآمن كانت مضاءة طوال الليل ، ولقد أرجعت ذلك لأن الثلاثة كانوا قد أمضوا تلك الليلة مستيقظين لأداء الصلاة وقراءة القرآن الكريم ، لكنني قررت أنه فيما بعد يجب أن لا يتمكن أي أحد خارج أي بيت آمن من مشاهدة أصوات الإشارة نهائياً ، ولذلك عملت على تزويد كل الشقق بستائر من النوع الثقيل الذي لا يسرّب الضوء .

ثالثاً : وهي المهمة الأصعب فلقد كانت ترتكز على رصد ومتابعة حركة السير من مدينة رام الله وصولاً إلى مدينة القدس المحتلة ، ومتابعة الحواجز العسكرية الموجودة على امتداد ذلك الطريق سواء كانت حواجز ثابتة أو حواجز استثنائية وفجائية ، ولقد جاء في ذلك التقرير الذي كان محصلة عدة أيام من المراقبة بأن نؤجل العملية حتى تهدأ الأوضاع ، لكنني وجدت عكس

ذلك تماماً ، لأنه رغم أن حالة الاستقرار والتفتیش كانت دقيقه إلا أنه كان ثابتاً ولم يتغير على مدى تلك الأيام ، أي أنه أصبح روتينياً والهدف منه التضييق والتخويف ليس إلا ، وهنا بعد أن صليت رکعتي استخاره قررت أنه قد حان موعد الانطلاق .

وأرسلت إشارة لبلال البرغوثي لكي يرسل الاستشهادي عز الدين المصري مع محمد دغلس ليوصله للأخت أحلام التميمي ، وبعد ذلك وفي وضح النهار وخلال أقل من ساعة ونصف على إشارات البدء ، كانت أحلام التميمي قد سلمت الاستشهادي وأوصلته للقدس بعد أن مرت عبر الحواجز دون أن تفتش دون أن تعطل ، فلقد كانت تحمل تقريراً صحفيًا يسهل لها التنقل بين المدن ؛ ولأنها فتاة فلم تلفت الانتباه .

وهنا أقول أن تعمدي لا اختيار أخت تعمل في المجال الصحفي كان مرده أن تكون رسالة القسام واضحة وضوح الشمس ، أي أنها الصهاينة قدمت بقصد مكتب إعلامي وصحفي لا يوجد فيه أي مسلح ولا أي نشاط عسكري ، وأنا أرد عليكم بأن تكون الصحافة هي من توصل الاستشهادي إلى موقع العملية ، وأن تكون الصحافة هي من تصور وتثبت وقائع تلك العملية.

وهكذا كانت أحلام التميمي ، تلك المجاهدة البطلة القسامية ثابتة الأعصاب وشديدة العزم والإيمان ، هي الصحفية الفلسطينية القسامية الأولى التي توصل استشهادياً ، وتعلن نبأ العملية عبر شاشة التلفاز الذي كانت تعمل به ؛ لأنه كان يجب أن يدرك العدو الصهيوني أنه إذا ما تجاوز خطأ أحمر ، فسوف نتجاوز نحن أيضاً ذلك الخط ، وهكذا كانت مع تقدم أيام الانتفاضة الأمم كانت الخطوط تقصف الواحدة تلو الأخرى .

وصل الشهيد عز الدين المصري إلى أحد مطاعم القدس القريبة إلى مطعم رُصد بعناية فائقة وهو مطعم لليبيتسرا اسمه مطعم "اسبارو" ، واجتاز الشارع ليصل إلى المطعم حاملاً القيثارة ، أما سبب اختيار القيثاراة فيعود لأمر واحد لا غير ؛ وهو أن حمل الآلات الموسيقية والدخول بها لذلك المطعم بالتحديد كان أمراً روتينياً جداً جداً ، فعندما قدم تقرير المراقبة قبل العملية جاء بذلك التقرير وصف للمكان وللأماكن التي كانت حوله ، ولأنني أثناء إقامتي بالقدس أعرف المكان جيداً ، فلقد قررت أن تكون القيثاراة هي الوسيلة لا الحزام الناسف ، لأنه كان هناك معهد لتعليم الموسيقى مقابل مطعم "اسبارو" ، ومحل لبيع الأدوات الموسيقية ، وكان عدد من مرتدى المعهد يتوجولون بالآلة الموسيقية في ذلك الشارع عند تنقلهم ، وكان بعضهم يدخل إلى ذلك المطعم لتناول البيتسرا حاملاً الآلة الموسيقية دون أن يتعرض للتفتيش من قبل الحراس الموجود على بوابة المطعم ، وهكذا وصل عز الدين دون أي عائق من أي نوعٍ كان ، فلقد كان منظره طبيعياً جداً من ناحية الملابس التي اخترها له أو من ناحية الآلة الموسيقية التي كان يحملها .

فجّر الاستشهادى عز الدين المصري نفسه ليرقى إلى السماء ، مسدداً بذلك ضربة من ضربات "العقاب" للصهاينة المحتلين ، وهنا يجب أن أقول أن أهم ما حدث في تلك العملية ، أهم من كل تلك الإجراءات والاستعدادات التي قمت بها وقام بها كل من شارك في تلك العملية هو ذلك الذي رأه الاستشهادى عز الدين المصري ولم نره نحن البشر ، نعم نحن البشر، أي أن عز الدين المصري لم يكن من البشر أبداً أبداً .

عندما طلبت من أيمن حلاوة أن يزودني بمقاتل قسامي يريد أن ينفذ عملية استشهادية قلت لأيمن جملة واحدة عندما سألني عن مواصفات الاستشهاد ؟ قلت له : " أريد من الاستشهاد "أن يرى ما لا أراه" ، هذا فعلاً ما حدث ، رغم أن عز الدين المصري لم يكن يعلم سوى أنه سوف ينفذ عملية استشهاد ؛ إلا أنه قال في تلك الليلة التي أمضها مستعيناً بالله مع بلال ومحمد ، قال لها : "سوف أقتل اليوم إن شاء الله ما بين خمسة عشر وستة عشر صهيونياً ، وسوف أصيّب بإذن الله عز وجل ما بين مائة وخمسة عشر وعشرين ومائة وثلاثين بجرح ، كثير منهم سوف يقعون معاقين ، أي أحياه لكنهم أموات بسبب إصابتهم الحرجة " .

عز الدين المصري رأى ما لم نره ! وعاهد الله عز وجل على ذلك فصدق ، صدق ورب الكعبة واستطاع أن يقتل خمسة عشر صهيونياً وأن يجرح مئة وستة وعشرين ، أغلبهم أصيّبوا بعاهات وإعاقات دائمة .

صدقت يا عز الدين المصري ، ورأيت ما لم نره ، نجحت وتفوقت علينا نحن البشر رغم كل ما قدمناه إلا أنه لا يساوي نقطة واحدة ب البحر ما قدمته أنت وأجزتك ، إلى جنات الخلد يرحمك الله .

وهنا أقول لك يا ابتي الحبيبة أني أنا عبد الله البرغوثي الوحد ؛ الوحد الذي لم ير الشهيد عز الدين المصري ولا مرة واحدة ؛ ولا حتى بنظرة واحدة طوال مراحل تنفيذ العملية ! لم أكلمه ولم أوصيه ولم أدعه ولم أعانقه ! فلقد كنت منشغلًا بأن ترى عيوني وتسمع آذاني كل ما يدور حول العملية من إجراءات أمنية وتقنية لكي تنجح العملة وترى النور .

ومنذ تلك العملية حرصت على أن يمضي الاستشهاديون القادمون يومهم وليلتهم الأخيرة عندي بصحبتي لكي نصلّي ونعبد الله ؛ فبدون عون الله وتوفيقه لن نصل إلى أي هدف أو غاية ، فإما حياة كريمة حرة وإما شهادة في سبيل الله .

عاد كل العناصر في خلايا كتائب عز الدين القسام سالمين وصعدت روح الشهيد عز الدين المصري إلى ربه ، لكنني لم أعد سالماً ، نعم ؛ لم أعد سالماً بعد تلك العملية ، فرغم أنني اهتممت بكل شيء إلا أنني أبقي إنساناً بشرًا ، ويقى من معى من مقاومين بشراً أيضاً ؛ فقد وقع خطأ ما ، فوقعت أنا وبلال في الأسر للمرة الأولى .

لم يدم أسرنا طويلاً ولكن خساري كانت كبيرة جداً جداً ، وفقدت الكثير الكثير جراء وقوعي في الأسر هذه المرة ، فلقد خرجت من تجربة الأسر حرّاً ، ولكن من نوع آخر ، نوع جعلني أصبح منذ ذلك اليوم أميراً للظل ، أميراً يعيش في الظل رغم أنف من أشعلوا مصابيحهم ليبحثوا عنّي ويجدونني .





الاعتقال الأول

بعد أن عاد كل العناصر لممارسة حياتهم بشكل طبيعي بعد إيصال الشهيد عز الدين المصري للقدس ، وقبل أن ينفذ عز الدين العملية بنحو نصف ساعة تقريباً ، كنت أنا في طريقي لاستلام شحنة من الأسلحة والذخائر مخبأة ببطقم للكراسي الضخمة والفخمة ، بقلب تلك الكراسي والأرائك تم وضع السلاح والذخيرة وإخفائها بشكل محترف من قبل أحد إخواننا الذي كان يعمل بمجال تنجيد الأثاث المنزلي بإحدى المدن الفلسطينية ، سلمته السلاح والذخيرة هناك وطلبت منه أن يخفيه داخل أحد الأطقم التي كنت قد اشتريتها من تلك المدينة ، فأخفى الأمانة بداخله وأرسله لي مع سائق نقل عام وأعطي السائق اسمًا وهماً كنت قد أبلغته بذلك الأخ المنجّد ، قبل وصول السائق للمكان المحدد ، وصل بلال بعد أن أوصل هو الآخر عز الدين المصري للإخوة لإيصاله إلى هدفه .

قابلت بلاً وانتظرت أنا وهو وصول السائق مع الأمانة التي لم يكن يعلم بوجودها داخل طقم الكراسي والأرائك ، والأهم من ذلك هو أن بلاً أيضاً لم يكن يعلم ماذا كنت أفعل هناك أصلًا ، فكل ما كنت قد طلبته من بلال هو أن يوصل عز الدين ويلاقيني في هذا المكان .

ما هي إلا دقائق بعد وصول بلال حتى انقض عدة أشخاص مسلحين وملثمين على بلال البرغوثي وعلى ليعتقلونا معًا، أولئك المسلحون كانوا عناصر جهاز الفساد والإفساد الفلسطيني؛ عناصر جهاز الأمن الوقائي ؟ كلاب جبريل الرجوب كلببني صهيون ، اعتقل بلال واعتقلت

معه ولم أكن أنا الشخص المطلوب بل بلال ، لأنه قد تم رصد حركته من قبل جهاز الأمن الوقائي بسبب نشاطه وحركته الكبيرة خلال الأشهر الماضية ، فخلال ما يقارب العشرة أشهر كان بلال البرغوثي قد نفذ وأدار وقاد عدداً كبيراً من العمليات عبر الخلايا التي قمنا بتشكيلها ، وما زاد الطين بلة هو ما كان في جيب بلال ؛ وبعد التحقيق معه لعدة ساعات بقي صامتاً لا يتكلم فاقتادوه للزنزانة في إحدى مقرات جهاز الأمن الوقائي بمدينة رام الله ، وهناك بالمقر الثاني فتشوه ووجدوا داخل أحد جيوبه ما يلي :

أولاًً : عقد إيجار شقته التي براما الله وهو عقد باسم شخص آخر ، وعقد إيجار شقة أخرى كانت مستودعاً للسلاح والذخيرة والمال والمواد المتفجرة .

ثانياً : وهو الأهم ؛ بل ما قد قضم ظهر البعير وظاهري أنا أيضاً ؛ هو أنهم وجدوا الورقة التي كانت تحمل وصية الاستشهادي "عز الدين القسام" الذي كان قد فجر نفسه قبل عدة ساعات فقط ، أي بعد اعتقال بلال وبعد انتهاء التحقيق الأولي معه بمركز جهاز الوقائي الفرعوي .

هنا جُن جنون جبريل الرجوب عندما علم أن بلال البرغوثي له صلة بعملية مطعم "اسبارو" الذي حدث ظهر اليوم في القدس ، ولقد ربط محققون وجود عبد الله البرغوثي المهندس في القضية من هذا الباب ، وما زاد الطين بلة هو أنهم وجدوا مسدساً مع بلال أثناء اعتقاله عندما كنا ننتظر السائق الذي كان يحمل الأمانة .

وهنا داهمت قوات جهاز الفساد والإفساد الفلسطينية جهاز الأمن الوقائي بقيادة كلببني

صهيون جبريل الرجوب الشقق التي كانت عناوينها مكتوبة على عقود الإيجار تلك ؛ العقود التي حملها بلال معه تحسباً من وجود ثغرة أمنية أثناء عملية مطعم "اسبارو" ولذلك فضل أن يحمل كل الأوراق التي تمت له ولنا بصلة ويحتفظ بها.

ما إن وصلوا لتلك الشقق حتى وجدوا عدة مئات من الكيلو غرامات من المواد الناسفة وعدة مئات من اللترات من المواد الحارقة التي تستعمل لإنتاج المتفجرات ، ووجدوا عدداً كبيراً من السلاح وعدداً أكبر من الذخيرة وحواسيب ومناظير ليلية ، والكثير الكثير من التجهيزات الإلكترونية ، كل ذلك لم يكن يهم أبداً ، فكله يُشتري بالمال ، المال هو ما وجدوه ! لقد وجدوا مالي الذي كنت قد سحبته من البنك ! وجدوا مالي الذي قبضته ثمناً للمحلات التجارية التي بعثها ! كل المال وجدوه واستولوا عليه؛ بل نهبوا .

وما زاد الطين طيناً هو ذلك الفاسد الآخر توفيق الطيراوي الذي كان يرأس جهاز المخابرات الفلسطينية ، فلسطينية بالاسم ؛ صهيونية بالعمل والولاء .

داهم توفيق الطيراوي وقواته منزلي في قرية بيت ريم ، داهموا قلعة والدي ، وداهموا عدداً من المخازن التجارية التي كانت أمام الناس فارغة وغير مستعملة ، وهي في الحقيقة كانت مليئة بالمواد الناسفة ، وهكذا استولى جهاز المخابرات على ما تبقى من مواد ناسفة ومن مال ما زال في قرية بيت ريم ، وهكذا أصبحت معتقلأً أسيراً لدى أجهزة العمالة الفلسطينية ، اعتقل محمد دغلس لدى الصهاينة الذين اعتقلوه بناء على صلته بلال البرغوثي بعد أن نُقلت تلك المعلومات من جهاز الأمن الوقائي لجهاز الشاباك الصهيوني ، ثم اعتقلت أحلام التميمي .

بقينا أنا وبلال معتقلان عدة أسابيع ، وخلالها أعلنا إضراباً عن الطعام ، فبدأت الأخبار تصل خارج أسوار المعتقل ؛ فخرجت مظاهرات طلابية ضخمة من جامعة بيرزيت ومن عدد من الجامعات الفلسطينية باتجاه المعتقل مطالبة بإطلاق سراحه ، سراح "مهندس كتائب القسام" ؛ ذلك الاسم الذي أطلق علىي منذ تلك الأيام ومطالب بإطلاق سراح القائد القسامي بلال البرغوثي ، يدي اليمنى وكتفي الذي أستند عليه .

قدر الله أن تكون للمشوار تتمة ، فلقد كانت عملية مطعم "اسبارو" عملية مهمة جداً من ناحية التوقيت ، فلقد كان الشارع متغطشاً لها ، راغباً بمعاقبة الاحتلال والثأر منه ، مما دفع الشارع للغليان مطالباً بالإفراج عن منفذ العملية ، وقدر الله أن ترتكب إسرائيل جريمة أخرى بحق واحد من أشرف رجال فلسطين وأطهرها ، وهو الشهيد "أبو علي مصطفى" الأمين العام للجبهة الشعبية ، حيث قصفت قوات الاحتلال مسكنه القاطن بمدينة رام الله فصعدت روحه إلى بارئها ، وتصاعدت معها المظاهرات مطالبة بالإفراج عن سراح المعتقلين الفلسطينيين من داخل المعتقلات الفلسطينية وعلى رأسهم سراح قادة القسام .

وهكذا وفي نفس يوم استشهاد "أبو علي مصطفى" وبعد إحدى المسيرات والمظاهرات التي توجهت إلى معتقل جهاز الوقائي تم إطلاق سراحه وبلال البرغوثي .

ُشيع جثمان الشهيد أبو علي مصطفى ذلك اليوم لكننا لم نشارك في ذلك التشيع ، ولم نحمل جثمانه ؛ فلقد كنا نحتاج لمن يحملنا ويساعدنا ، أما أحلام التميمي فقد كانت تخضع للتحقيق أيضاً في سجن "المسكونية" بالقدس ؛ حيث كان محمد دغلس يخضع للتحقيق هو

أيضاً ، وهنا أقول أن ما جرى لي عند التحقيق كان أهون بكثير مما جرى لأختي أحلام وأخي محمد ، فأنا لم أعدّب لدى جهاز الأمن الوقائي ؛ أما إخوتي فذاقوا المر والعقم هناك عند الصهاينة ، لم نحمل الجثمان لكننا حملنا بعيداً .



المطارد

نعم أصبحت مطارداً بعد عام على العمل العسكري السري منذ بدء الانتفاضة ، أصبحت مطارداً، وأيّ مطارد ، وقد كنت منهكاً من الإضراب عن الطعام الذي خضته وأنا معتقل لدى أجهزة الأمن الوقائي ، وبلال كان يعاني كثيراً بسبب الإضراب لأنه كان يملك كلية واحدة ؛ حيث فقد كليته الأولى في الانتفاضة الأولى ، وكاد يفقد الثانية نتيجة الإضراب ، لو لا ستر الله ولطفه به .

كنا بدون شقق ، أو بدون مكان آمن نلجأ إليه ، بدون سلاح وعتاد ، وبلا مواد ناسفة وبلا بنية تحتية من حواسيب وأجهزة إلكترونية ، أما الأهم هو أنني مطارد فقير ، فقير معدم لا أملك قرشاً واحداً ، لأن المحن تأتي مجتمعة ولأن الابتلاء قد كُتب علي في تلك الفترة الزمنية الصعبة .

تلك الفترة التي كنت أشعر فيها بالعجز والضعف ، بعد أن كنت قد بدأت أجيد فنون المقاومة ، وهنا يا ابنتي الجميلة ويا ملاكي الحارس جاء الدور عليك لتمدي لي يد العون والمساعدة ، ولتعيني كتائب عز الدين القسام على النهو حضرة أخرى رغم أن عمرك لم يكن قد تجاوز العامين ، ورغم أنك وطوال العام الماضي الذي كنت أعمل فيه بشكل سري لم أرك سوى أياماً معدودة ؛ رغم كل ذلك كنت أول من قدّم لي وللقسام يد العون .

عندما ولدت قبل عامين كنت ثرياً فاحش الثراء ، ولذلك كنت كثيراً ما أجلب المهدايا لك

وبالاخص الهدايا الذهبية ، وهكذا أصبح لديك الكثير من تلك القطع الذهبية التي كنت أوصي صديقاً لي يملك محلّاً للمجوهرات أن يصنعها لك خصيصاً لتناسب صغر يديك وخفة وزنك ، وعندما كنت أذهب لإحضار تلك القطع الذهبية من عند صديقي الصانع كنت أشتري من عنده أيضاً قطعاً ذهبياً لوالدتك ؛ لزوجتي الحبيبة ، أما قطع الذهب الخاصة بوالدتك، فلقد كانت كبيرة وثقيلة جداً ، حتى أن والدتك كانت دائماً ما تقوم باستبدال تلك القطع بقطع أصغر لتناسب مع ذوقها هي ، فلقد كان ذوقها أرقى بكثير من ذوقي .

وهكذا فلقد كان أول ما فعلته عند خروجي من معتقل الوقائي هو بيع كل ذهبك باستثناء خرزة زرقاء ؛ وكل ذهب والدتك باستثناء دبلة خفيفة أبقيتها كرمز للزواج ، أنت لم تعارضي أبداً ، أما أمك فهي من اقترح علي تلك الفكرة أصلاً ؛ بل إن والدتك قامت بسحب كل المال الذي كنت قد أودعته في حسابها قبل عام عندما قررت أن أسير في درب المقاومة ؛ والمال الذي سبق أن جمعته من هدايا ونقوط خلال زواجنا .

وثاني ما قمت به هو الوصول للصديق الذي أودعت عنده الأمانة ؛ تلك الأمانة ؛ طقم الكراسي المليء بالسلاح والذخيرة ، فهو صديق وفي أرسلت له أثناء اعتقالي عند الوقائي رسالة، فقام بانتحال الاسم الذي ذكرته له وحصل على الأمانة واحتفظ بها عنده .

وعندما ظننت أن الأمور قد بدأت تسير بسلام ، وخاصية عندما استأجرت شقة وأعدت شراء الحواسيب وأصبحت أملك عدة هويات مزورة ، قدر الله أن أفقد من حولي الرجال الواحد تلو الآخر ، فاعتقل بلال البرغوثي مع ثلاثة من المجاهدين عند جهاز الأمن الوقائي ،

وبعد ذلك بفترة قصيرة فقدت أهم عقول حماس الهندسية المهندس أيمن حلاوة ، حيث قصفت إسرائيل السيارة التي كان يقودها بمدينة نابلس ، نابلس جبل النار .

وبعد ذلك فقدت حماس بل فقدت فلسطين وكتائب القسام ، سيد القساميين الشهيد محمود أبو هنود ، حيث استشهد الأسد الجسور الذي أذاق الصهاينة المر ومرّغ أنوفهم بالتراب منذ سنوات طويلة من الانتفاضة الأولى وصولاً إلى الانتفاضة الثانية ، وهكذا أصبحت مثل الطفل الصغير بلا إخوة وبلا آباء ؛ فأيمن حلاوة كان أباً للقسام ومحمود أبو هنود كان أباً وقائداً عظيماً للقسام .

أما الإخوة فهم كثُر، فلقد اعتقل في تلك الفترة أيضاً "سليم حجو" وهو أهم حلقات الوصل بين نابلس ورام الله ، بين جناحي الضفة الغربية ، ولأن يحيى عياش قد خطّ على القرآن الكريم " كن مع الله ولا تبالي " ، فلقد أعز الله فلسطين والقسام بقائد قسامي لم أكن قد سمعت عنه من قبل ، قائد كان معتقلًا منذ سنوات لدى أجهزة الأمن ؛ سلطة الفساد والإفساد ، معتقلًا منذ اغتيال يحيى عياش ، اعتقلته الأجهزة الأمنية طوال تلك الأعوام بسبب علاقته مع عياش ، قدر الله له أن يخرج من أسر السلطة ؛ وقدر الله لي أن ألتقي به .

لم يكن من حملة السلاح ولا من قاذفي العبوات الناسفة ، ولم يكن طويلاً عريضاً ، لكنه كان عقلاً مفكراً بارعاً في إيجاد كل ما تحتاجه المقاومة ، كان صوت العقل والحكمة ؛ شجاعاً صبوراً صامتاً ، وأعني بالصمت كل ما تحمله الكلمة من معنى ، فطوال عامين كاملين من العمل المشترك ومن المطاردة سوياً وطوال أيام وليالٍ طويلة ، ظلّ صامتاً ، أقسم أن حدثنا معاً لم

يتجاوز خلال العامين ساعتين أو ثلاثة كحد أقصى ، كان يفهم علي دون أن أتحدث ! و كنت أعلم ما يريد دون أن يقول ! وكما يقال: "اللبيب بالإشارة يفهم" ، لكنني أقول أن ما كان بيننا كان هبةً ربانيةً ؛ هبةً لكلينا حتى نتمكن من خوض المعركة بصمت و قوة .

وإلى الآن ما زال ملف التحقيق معه مفتوحاً أمام القضاء الصهيوني ، فسوف أكتفي بأن أسميه باسم "السلوادي" ، وهكذا بدأت أنا والسلوادي من جديد ، هو خارج من المعطل وأنا كذلك ، هو رافق المهندس عياش ؛ وأنا المهندس أبحث عن يرافقني ويعيّنني على دربي و درب رجال القسام .

وهنا بعد أن بدأت أمللم أفكاري وأعيد صفت صفو في التي بعثرتها أجهزة الأمن الوقائي والمخابرات ، وجدت نفسي أقول تلك الكلمات ، الكلمات المتشابكة :

أليست على دين صلاح الدين *** وابن الخطاب عمر أمير المجاهدين
أليست من الموحدين المسلمين *** ألم ننطق الشهادة لرب العالمين
ألم تر كيف نذبح في فلسطين *** وكيف يحاصر أهل غزة المساكين
سحقاً لك أيها الجبان *** أنت ما عدت اليوم إنسان
بل أصبحت عميلاً للطغيان *** تباً لك يا ابن الغربان
ما دمت تقبل بالظلم والهوان *** لأهلك أهل القدس والأقصى وفلسطين
أعميت أم أنت أعمى بلا عيون *** وبلا سمع وبلا آذان

أليس هذا فعل من خان *** وتحالف مع العدو بإمعان
أم أن دينك عليك هان *** استيقظ من غفلتك ولا تحزن
فعدوي وعدوك واحد لا اثنان *** إنه حلم احتلال بني صهيون
ألم يمنعوا الصلاة وإقامة الأذان *** ومنعوا الشيخ من قراءة القرآن
مطارداً أخاطبك يا حليف الطغيان *** فأنا ابن كتائب القسام عز الدين
فأنا بدين محمد أدين *** أنا ابن رام الله وابن جنين
أنا ابن القسام عز الدين *** أنا ابن القسام عز الدين
وأنت أصبح العدو هو ربك *** وهو من له أنت تدين

حسبي الله ونعم الوكيل على كل من باع وهادن وقبل الذل والهوان ، حسبي الله على تلك
الأجهزة الأمنية التي أصبحت عبئاً في فلسطين على المقاومة والثائرين ، أصبحت إمارات
وممالك لقادتها الذين يتکالبون على المقاومة إرضاء لأسيادهم الصهاينة .

وهنا وقبل أن أعاود ضرب العدو من جديد قررت أن أضرب تلك الأجهزة الأمنية لكن
ليس دون إراقة قطرة دم واحدة ؛ بل من خلال اختراقها بشتى الوسائل والطرق ؛ بالمال
والتكنولوجيا ، والأهم من خلال بعض العناصر ، عناصر تلك الأجهزة القائمين عليها وعلى
قادتها ، قاوموها بعد أن عرفوا حقيقتها ، وعرفوا أنها أدوات بأيدي قادتهم لتحقيق أوامر المحتل،
ولأنها بيت من ورق ، سرعان ما تمكنت من معرفة كل ما يدور داخل دوائر تلك الأجهزة
الأمنية، وأقسم بالله العلي العظيم أني أصبحت أعرف أدق التفاصيل التي تدور أحديهم حوالها،

و كنت أعلم المهام المكلفين بها قبل أن تعلم بها العناصر التنفيذية ، أي كنت أعلمها من المصدر ، حتى أني أصبحت أعلم متى سوف تقتتحم قوات الاحتلال وأين سوف تقتتحم ، كان ذلك يتم بالتابع مع قادة تلك الأجهزة العمillaة بقيادة جبريل الرجوب وتوفيق الطيراوي .



" العقاب " ثلاثيًّا هذه المرة !!



كان واجباً على كتائب عز الدين القسام أن ترد رداً موجعاً بعد استشهاد كل من محمود أبو هنود واستشهاد المهندس أيمن حلاوة ، بل وكان واجباً عليّ بشكل شخصي أن أرد على تلك الجرائم بسبب علاقتي بأولئك القادة العظاماء ؛ لكنني عندما استشهادا كنت ما زلت ألمم خيوط إدارة المعركة من جديد ، ومع ذلك وقبل أن أجمع كل الخيوط ، قررت تنفيذ أكبر وأعقد عملية تنفذها كتائب القسام في ذلك الوقت في القدس المحتلة بالتحديد ، العملية الثلاثية .

لقد قررت أن أنفذ ثلاثة عمليات في يوم واحد في القدس ، لكي يعلم العدو أن العقاب قادم ؛ قادم رغم أنفه ، قادم بعون الله ، وهنا وقع الاختيار على اثنين من الاستشهاديين لينفذوا تلك العملية ، وهما الشهيدان أسامة حلبة وأيمن بحر ، فهما صديقان منذ الطفولة ، وكانا قد طلبا من أحد الإخوة أن يبلغ مهندس القسام عبد الله البرغوثي عن رغبتهما بالشهادة في سبيل الله ، ولأنني كنت لا أفضل ذلك النوع من العمليات في ذلك الوقت السابق ؛ فلم أبدِ موافقتي على ما طلباه ، ولكن بسبب إلحاحهما الشديد والقوى ؛ الذي وصل بهما إلى حد أن يقسما أنه إن لم أوفق على إعدادهما وتجهيزهما لينفذوا عملية استشهادية أن يحملان سكاكين ويطعنان جنود الاحتلال على إحدى الحواجز العسكرية ، وهنا تلاقى إصرارهما مع الحاجة الملحة لتلقين العدو درساً قاسياً بعد عمليات الاغتيال التي نفذها .

كان كلا الاستشهاديين من مدينة القدس ، وهذا ما جعلني أكلفهم باستطلاع عدد من الأماكن التي كان يمكن استهدافها ، والتي كنت قد زرتها أنا عندما كنت مقيماً بمدينة القدس قبل الانفاضة وفي بدايتها ، قبل أن أصبح مطلوباً لقوات العدو ، وخلال جولتين من الاستطلاع وقع الاختيار على أحد الشوارع المليء بالملاهي الليلية ، وهنا أقول شارع ؛ أي أنها لم تستهدف ملهمي ليلى بعينه وإنما الصهاينة المتجمهرين أمام تلك الملاهي الليلية وهم غالباً من شبان جنود الاحتلال الذين يمضون ليتهم بالسهر والسكر ؛ ونهارهم بارتكاب الجرائم ضد أبناء فلسطين . المحتلة .

طلبت منها شراء سيارة ليستعملها في تنفيذ العملية ، على أن لا يتم شراؤها من رام الله أو من القدس ، تجنبًا للفت الأنظار لها ، وبعد ذلك حددنا موعداً لتنفيذ العملية ، فحضرنا إلى إحدى الشقق التي كنت قد أعددتها لتكون مختبراً للعبوات الناسفة ، وهناك زودت أحدهما بحزام ناسف لأنه كان يستطيع بسهولة - بسبب فصل الشتاء - إخفاءه بواسطة جاكيت شتوي . أما الثاني فأعطيته جهاز حاسوب مفخخ ، ولقد أمضيا تلك الليلة الرمضانية بعد تناولهما طعام الإفطار بتصوير عدد من أشرطة الفيديو لها ؛ أشرطة للإعلام وللعائلة من أجل توديع أهلهم .

أمضيا تلك الليلة وهو يصليان ويقرآن القرآن الكريم ، وعندما جاء موعد السحور ودعتمها لينطلقوا إلى القدس ليتمكنوا فيها حتى حلول منتصف الليل ؛ وبعد ذلك يفجرا نفسيهما بالأماكن المحددة مسبقاً ، عندما قلت أن "العقاب" سيكون ثلاثة ، فأنا أعني ذلك حرفيًا ، فلقد كان ثلاثة قوياً .

عندما تم رصد مكان تنفيذ العملية كان مكاناً يناسب ثلات عمليات لا أكثر ولا أقل ، فلقد طلبت من الاستشهادي الأول أن يفجر نفسه وسط الجنود الصهاينة المتواجددين عند بوابة أحد الملاهي الليلية عبر جهاز الحاسوب الذي كان يحمله معه ؛ وكان ذلك شيئاً عادياً أن يحمل أي شخص جهاز حاسوب ، أما الاستشهادي الثاني فلقد طلبت منه أن يفجر نفسه من خلال الحزام الناسف الذي كان يرتديه على جسده الظاهر وسط مجموعة أخرى من الجنود الذين يرتدون نادياً ليلاً آخر يقع في شارع آخر .

وفعلاً وبمجرد سماع دوي انفجار جهاز الحاسوب من الاستشهادي أسامة حلة قام الاستشهادي أيمن بحر وحسب التعليمات والوقت المعلوم مسبقاً بتفجير نفسه ، وهكذا أوقع كلا الاستشهاديين عدداً كبيراً من قتلى وجرحى العدو الصهيوني .

بعد ذلك امتلأت الشوارع بسيارات الإسعاف وبقوات الاحتلال وبالمحطات الفضائية التي كانت تنقل البث المباشر لما يحدث هناك ، ولقد كان من عادة قوات الاحتلال أن تقول بداية الشارع الذي حدث فيه العملية ونهايته ، وهذا ما حدث فعلاً ؛ وهذا ما شاهدته على التلفاز وأنا أتابع البث المباشر ، وعندما رأيتها تقف شامخةً وكأنها تريد أن تحلق في السماء قلت لها : "مع السلامة" !

"مع السلامة" بعد أن اتصلتُ من خلال الهاتف الجوال الذي كان بحوزتي وهاتف آخر كان بحوزتها ، فوَّدعْتني وانفجرت ، فلقد قمت بتفخيخ سيارة أثناء الليل عندما كان الاستشهاديان يصليان ويقرآن القرآن الكريم ؛ وبعد أن فاختتها وضعـت عليها إشارة أعلى

السقف لكي أستطيع مشاهدتها عبر التلفاز .

قبل أن ينطلق الاستشهاديان وأثناء وضعنا للخطة قررنا أن يقوما بإيصال نفسيهما إلى موقع العملية وأن يقوما بركن السيارة على الطرف الآخر من الشارع ؛ الطرف الذي كان بعيداً عن موقع العمليتين ، والذي كان وحسب معرفتنا بالمنطقة سوف يكون هو الطرف الذي تقوم قوات الاحتلال بإغلاق الشارع من عنده ، وهذا ما حدث بحمد الله ولقد صورت هذه العملية بالصوت والصورة عبر البث المباشر ، فكانت بحمد من الله وتوفيقه صفعة وعقاباً قوياً يتلقاه العدو الصهيوني جراء جرائمه بحق أبناء شعب فلسطين المحتلة .

وهكذا تم الرد وتم توجيه "العقاب" المناسب رداً على استشهاد كل من المهندس أيمن حلاوة وقائد كتائب القسام محمود أبو هنود رحمة الله عليهما ، وكتب الله لهم وللشهددين أسامة حلبة وأيمن بحر الخلود في جنات الخلد والنعيم .

هذه العملية أفقدت العدو توازنه بشكل كبير جداً ؛ مما جعله يكشف بحثه عنى من خلال عملائه أولاً ؛ ومن خلال عملاء جهازي الوقائي والمخابرات ، وأصبحت صورتي تماماً جيوب أولئك العملاء الذين كانوا يجوبون الشوارع والمساجد ليلاً نهار بحثاً عنى ، فلم أتمكن من أداء الصلاة في مسجد منذ تلك العملية وحتى يومنا هذا أبداً .

وأطرف ما في هذا الموضوع أن جهاز الرصد الخاص بكتائب الشهيد عز الدين القسام الذي عملتُ على تشكيل عدد من أفرعه بالمناطق التي كنت أقيم فيها قد أشار في إحدى التقارير أنه لاحظ وجود عميل لجهاز الأمن الوقائي وعميل لجهاز المخابرات وعميل آخر للعدو

الصهيوني، كلهم يقفون بجوار أحد المساجد في منطقة البيرة الصناعية التي كانت المعلومات تشير لهم أنني أقيم بها في ذلك الوقت .



طفى وتجبر



هناك بعيداً عن رام الله والقدس حاصرت دبابات "الميركافا" قريتي بيت ربيما فوصلني الخبر ، فعرفت على الفور أن المقصود من ذلك الحصار هو الوصول إلي ، بل الوصول لقلعتي واعتقال زوجتي هناك ، فتوجهت مع إحدى المجموعات القسامية المقاتلة عبر الطرق الالتفافية الترابية لمحاولة دخول القرية وخوض المعركة هناك ، ولقد تزودنا بكل ما يلزم من عبوات ناسفة وقنابل يدوية وأسلحة نارية ومناظير ليلية وبعض بندق القنص ، لكننا لم نتمكن من دخول القرية ، لأننا كنا في موقع مكشوف قررنا التروي حتى يحل الظلام ؛ فالليل حامٍ وساتر بعد الله عز وجل .

وما إن حل الظلام حتى سبقتنا دبابات الميركافا والمجنزة التي تعمل بدون الحاجة لوجود جندي عندها ، فهي تعمل عبر أوامر من داخل المجنزة أو الدبابة ، فبدأت تلك الدبابات بإطلاق نيرانها على كل أرجاء القرية فلم تترك منزلاً يقع ضمن ضمن مرماتها حتى قامت برشه بوابل من الرصاص والقذائف !

استمر القتال طوال الليل وحتى طلوع الفجر ، فامتلأت القرية بالشهداء والمصابين ، واعتقل المئات من أبناء القرية ؛ وفرغت المنازل من كل الرجال ؛ من كل من كان عمره أكبر من خمسة أو ستة عشر عاماً ، هناك اقتيد عدد من أعمامي وأبنائهم ؛ وأخذ جزء منهم لكي يتعرفوا على جثتي من بين الشهداء الذين كانت جثثهم أشلاء ممزقة بفعل قذائف الدبابات ، فلم يستطع

أحد أعمامي التعرف على جشي المفترضة .

في ذلك اليوم استشهد نحو ثمانية شهداء ، أما الجرحى فكانوا بالعشرات لا بل بالمئات ، لكنني لم أكن لا أنا ولا إخوتي مقاتلي القسام من بين الشهداء أو الجرحى ، فنحن كنا مسلحين ومجهزين مما اضطر قوات العدو لأن تحضر عدداً من طائرات الأباتشي لتمشط المنطقة التي كنا فيها ، ولكن قدر الله لنا أن نخوض اشتباكاً طويلاً دون أن نفقد قطرة دم واحدة ، وفرض حظر التجوال لعدة أيام على القرية ، بقينا خلالها نناوش العدو من التلال المجاورة ؛ مما جعل القوات المحتلة تغادر القرية وتلاحقنا في تلك التلال والجبال ، وبفضل الله عز وجل وبمساعدة العبوات الناسفة وبنادق القنص استطعنا أن نوقع عدداً من جنود العدو بين قتيل وجريح .

زوجتي لم تكن بالقلعة عند مهاجمتها وإمطارها بوابل من القنابل مما أدى إلى احتراق جزء منها ودمار جزء آخر ، أما زوجتي الحبيبة وملاكي الحراس وأسامة ابني الصغير ، فلقد حماهم الله من تلك القنابل ومن الاعتقال أيضاً .

وما إن انسحبت قوات العدو حتى بان حجم الدمار أكثر وأكثر ، فلقد سُحقت سيارتان كانت أملکهما كانتا تقفان أمام منزلي ؛ فتحولتا إلى كومة من الحديد ، وتم تفجير ثالثة كانت تقف داخل أحد المخازن التجارية التابعة لي ، أما السيارة الرابعة فلقد وجد نصفها فقط ؛ أما النصف الآخر فوجد مهروساً في أحد أطراف القرية ، ويبدو أنه كان قد علق أسفل أحد الدبابات أثناء تلك المجازرة ، مجررة بحق البشر والشهداء وبحق المنازل والسيارات وبحق أشجار الزيتون ، فلم يبق شيء قد سلم من تلك الآلة ؛ آلة الظلم والطغيان ؛ آلة الدمار ، أما أنا فلم يتأنّ ردي عبر

عدد من العمليات المكثفة نفذت على الطرق الالتفافية وضد نقاط التفتيش والحواجز الصهيونية .

بناء ما تم تدميره

عندما عدت إلى رام الله بعد أن شاهدت حجم الدمار الذي حل بقريري ؛ قرية بيت ربيا ، قررت أن أتخذ عدة إجراءات لعلي أساعد ولو قليلاً على التغلب على هذا الدمار ، فكلفت أحد الأقارب بإعادة بناء منزل والدي الذي تهدم جزء منه واحترق جزء آخر ، وأعطيته المال المناسب لذلك ، ثم قمت بمساعدة كافة الأشخاص الذين كانوا مديونين لي بمال من أهل القرية ، ذلك المال الذي كانوا مديونين به جراء شرائهم السلع الاستهلاكية من المحلات التجارية التي كنت أملكها حتى بداية الانتفاضة ، لأنه عندما صفيت وبعت تلك المحلات بقيت أحافظ بسجل الديون.

ولم أكتف بهذا ، فالدمار كان قد طال الكثير والكثير من البيوت والأسر ، فأرسلت جزءاً من المال لعلي أساهم في صمود أهالي القرية على المحتل ؛ ولعلي أتمكن من إعانتهم على إعادة البناء .

وما هي إلا أسبوع قليلة جداً حتى عادت القرية على أحسن حال وأفضل وضع ، وما فاجاني هو أن أهل القرية كانوا متكاففين ومتعاونين جداً ، حتى أن جزءاً كبيراً من المال الذي كنت قد خصصته لإعادة إعمار منزل والدي "قلعة جدي" ظل على حاله لأن عدداً من العاملين في مجال البناء تبرعوا الي ؛ تبرعوا العبد الله البرغوثي ، بعملهم وبمواد البناء اللازمة لإتمام تلك

الأعمال ، وعندما سُئلوا قالوا : "لنفدي أباً أسامة" عبد الله البرغوثي " مقاتل بنى صهيون ،
وسوف نبني ما دُمرَ من قِبَل بنى صهيون ، فهذه معركتنا أيضًا" !

حمدت الله على تكاتف أهل القرية ، بل على تكاتف أهل فلسطين الذين كانوا يسارعون
إلى الخير وإلى البناء وإلى تقديم كل ما يملكون في سبيل تحقيق ذلك رغم ضيق الحالة المادية
.





أبو علي السلوادي

في تلك الفترة وبخاصة بعد اعتقال بلال البرغوثي وعدد ليس بالقليل من عناصر كتائب عز الدين القسام ، سواء على يد أجهزة السلطة الأمنية أو على يد أجهزة الأمن الصهيونية ، أصبحت العلاقة قوية ومتينة وأصبح هناك بعض المشاكل أيضاً ، كانت تلك المشاكل تعود لسبب واحد وهو أن أبو علي السلوادي كان يخشى أن يفقدني وكان يخاف علي من الاعتقال أو الاستشهاد ، وكان يردد دائماً جملة على مسمعي يقول فيها : " إن فقدناك يا أبو أسامة البرغوثي فإننا لن نتمكن منها حاولنا من تعويضك وتعويض ما تملكه من خبرة ومهارات عسكرية وأمنية " كنت أرد عليه ضاحكاً : " فلسطين ولادة ؛ سوف تنجو من هم خير مني بألف مرة ؛ فلا تقلق " ، لكن قلق أبي علي السلوادي كان في محله ؛ ففي تلك الفترة كانت قوات الاحتلال تناوش حول المدن الكبرى ولم تكن قد اقتحمت أيّاً منها ، وفي إحدى تلك المناوشات والمعارك على أطراف مدينة رام الله ؛ وتحديداً منطقة "أم الشرابيط" ، كنت مع عدد من رجال القسام ، وهم "سيد الشيخ قاسم" و "أبو أحمد الخطيب" وعنصران آخران ؛ خضنا اشتباكاً فجرّنا خلاله العديد من العبوات الناسفة وأطلقنا العشرات من الرصاصات باتجاه قوات العدو التي كانت تحاول اقتحام منطقة "أم الشرابيط" ، قدر الله لي في ذلك اليوم أن أصاب بإحدى الرصاصات ، ل تستقر هذه الرصاصة في فخذي اليمنى مخلفةً نزيفاً حاداً ، وقبل أن يتمكنوا من نقلني بعد إصابتي كنت قد دخلت في غيبوبة نتيجة نقص الدماء من جسدي بسبب النزيف الحاد ،

استيقظت بعد ذلك بيومين في إحدى الشقق الآمنة بعد أن كان الإخوة سيد الشيخ قاسم وأبو أحمد الخطيب قد نقلوني إليها بمساعدة أخوين قساميين آخرين .

في تلك الفترة وخلال تماثلي للعلاج أدركت أن كلام أبي علي السلوادي صحيح ومهم جداً وأدركت كم كنت مخطئاً وكم كان هو صائباً وحكيماً ، فأبوا علي كان يتضايق مني من أمرين اثنين ؛ أولهما كثرة تناقله بين المدن الفلسطينية وقرابها ؛ فلقد كنت لا أفضل المكوث في أي من المدن سوى فترة محدودة ؛ أو بمعنى آخر كما كنت أقول لأبي علي السلوادي عندما يصبح عملي وجودي في أي مكان روتينياً فأنا أنتقل إلى مكان آخر ؛ فأنا لا أحب الروتين فهو يقتلني ويدمر حماسي ؟ ورغبتني في التجديد هو ما يدفعني للنجاح ، أما الشيء الثاني الذي كان يتضايقه على السلوادي مني فقد كان حبي لخوض الاشتباكات المسلحة وعشقي للكائنات التي كنا ننصبها لقوات الاحتلال .

ما إن بدأت أسترجع عافيتي حتى قررت أن أبدأ أوسع برنامج لتدريب كل من يمكن تدريبيهم من عناصر القسام على تقنيات صناعة العبوات الناسفة واللوحات الإلكترونية اللازمة لذلك ، وهنا كان دور أبي علي السلوادي دوراً محورياً ورئيسياً للغاية ؛ فلقد كان يتنتقل من مكان لآخر ويحوب المدن الفلسطينية متყياً أفضل شباب كتائب القسام الذين يصلحون ويملكون القدرة على التعليم وعلى القيادة أيضاً ، فنحن خلال البرنامج التدريسي الذي استمر نحو عام كامل ؛ كنا ندرب ونعد عدداً من قادة القسام ليكونوا قادة المرحلة القادمة حتى لا يكون هناك فراغ أو نقص إذا ما استشهد قائد ما ؛ وخاصة أن القبضة الأمنية من أجهزة السلطة الفلسطينية

ومن قوات الشاباك الصهيوني كانت قوية وشديدة جداً .

أما برنامج التدريب فلقد كان مكثفاً ومضغوطاً لدرجة كبيرة ومتعبة ، فلقد كان الدور أن تعقد بمحملها في مدينة رام الله ومدينة البيرة في عدة منازل أعدت وخصصت لتلك المهمة .

تقدّم برنامج التدريب بشكل جيد بفضل أبي علي السلوادي ؛ فقد أدار هذا البرنامج بحكمة واقتدار ؛ وبفضل كل من سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب اللذين كانا مساعديَّ الشخصيين ؛ وكانا يمضيان كل وقتهم إما بتجهيز الشقق وإعدادها وإما بإحضار المتدربين وإعادتهم للأماكن التي قدموا منها ، وتلك المهمة كانت الأصعب .

فلقد كان إحضار متدرب واحد ليتلقي برنامج التدريب يتطلب إجراءات أمنية سريعة ومعقدة في ظل الملاحقة الأمنية التي كانت حركة المقاومة الإسلامية حماس وذراعها العسكري كتائب عز الدين القسام تتعرض له من قبل قوات الأمن الفلسطينية التي كانت تجوب المدن والشوارع والمباني السكنية بحثاً عنها ؛ ومن خلال قوات العدو الصهيوني التي كانت تبحث عنها عبر عملاها وعبر وسائلها التقنية من طائرات للاستطلاع ، تلك الطائرات التي لم تكن تفارق المدن الفلسطينية أبداً ، ومن خلال أجهزة رصد المكالمات الهاتفية ؛ مما جعل مهمة سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب من أصعب المهام ، ولكن بفضل الله أنها طوال عملهما معى لم يرتكبا أي هفوة أو خطأ ، بل كانوا يملكان نوعاً من البصيرة الربانية وحساً أمنياً فائقاً ، يجنبنا الوقوع في مصائد العدو .

أما أبو أحمد الخطيب فقد كان مثل السيف ؛ إذا ما ضرب ضربة فإنه لن تكون هناك

حاجة ليعيد الضربة مرة أخرى ؟ فضربة واحدة منه تكفي وتزيد !

عندما أعددت برنامج التدريب ؛ قسمته لعدة مساقات : النظري والعملي والميداني ، أما النظري فقد حوت كل ما كان في رأسى من معلومات تقنية إلى أوراق مطبوعة ، مطبوعة بلغة واضحة سهلة جداً ، بحيث أن المتدرب رغم عدم إلمامه بعلوم الهندسة الإلكترونية أو بعلوم صناعة العبوات الناسفة ؛ فإنه كان يمكن من فهم تلك الأمور لخلوها من التعقيد والإطالة ، فأنا من خلال تلك الأوراق المطبوعة المزودة برسوم هندسية وتوضيحية أردت أن تكون الصورة واضحة بسيطة ، ثم أني قمت بالعمل على أن يحصل المتدرب على نسخة من تلك الأوراق قبل وصوله للتدريب عندي بعدة أيام لئلا يفاجأ بما سوف يتم إعداده وتدريبه عليه.

ثم من الناحية العملية ، فقد كنت بعد انتهاء الشرح النظري أبدأ بالتدريب العملي مع المتدرب ، فأعلميه كيف يقوم بإعداد الدوائر الإلكترونية وتجهيزها ؛ وكيف يقوم بإعداد المواد الناسفة وتجهيزها ضمن عبوات مختلفة الأشكال والأحجام ؛ عبوات تتناسب مع كل عملية يراد التحضير لها .

أما من الناحية الميدانية فقد كنت أدرّب عنصر القسام على التعرّف على أنواع الأسلحة المختلفة وعلى الذخائر المستعملة ، ثم أدرّبه على كيفية فك وجمع تلك الأسلحة من مسدسات ورشاشات وقنابل يدوية ، وبعد أن يتقن هذه المرحلة التي كانت تتم داخل المنزل المخصص للتدريب ، كنت أبدأ مهارة عملية ؛ فإنه يؤخذ إلى أحد المناطق الريفية النائية للتدريب .

حرست على شيء مهم وأتمنى أن يحرص عليه كل من يعمل في ميدان المقاومة ، وهو أنه لم يتمكن أي أحد من رؤية وجهي أبداً ولا التعرف على صوتي ، فلقد كنت مقنعاً طوال مدة التدريب منها طالت ، وكنت أتحدث باللغة العربية الفصحى وليس اللغة العامية ، وكنت أطلب من سيد الشيخ قاسم أن يلبس كل مترب قبل أن يدخله على المقاتلين قناعاً لكي لا أتعرف أنا على هويته ، وكان سيد يطلب منهم التحدث باللغة الفصحى مثلث تماماً ، وكنت أعطى كل واحد منهم اسم حركياً أتعامل معه به ، أما هم فلم يكونوا يقولوا لي سوى كلمة واحدة وهي "الشيخ" ، "الشيخ" كان لقبي عند تدريسي لكل تلك العناصر القسامية المقاتلة، بعد أن تمكنت من تدريب كافة تلك العناصر ؛ بدأت أنتقي عدداً منهم لتتكليفهم بمهمات جهادية خاصة .

كان الانتقاء يتم حسب المهارة التي أبدتها المترب أثناء تدرّبه الأول لدى ، فكنت أخضعه لتدريب مكثف متخصص ؛ بحيث يكون هذا التدريب يتناسب مع المهام التي سوف يكلّف بها ، وسوف أتطرق لبعض أبرز من قمت بتدريبهم وإعدادهم ، وسوف أبدأ من القدس الحبيبة على قلبي .

لقد وقع اختياري على مجاهد اسمه "وائل العباسي" وعنصرین آخرين قادرین على استعمال السلاح وصناعة العبوات الناسفة وزراعتها ، ولقد قامت تلك الخلية بعدة عمليات لزرع العبوات الناسفة في أنحاء مدينة القدس ، فلقد كنت أزود تلك الخلية بالعبوات الناسفة تلك العمليات ، لأن الخلية لم تكن تملك مكاناً آمناً في مدينة القدس لصناعة تلك العبوات فكنت أصنعها في مدينة رام الله ؛ وكان وائل العباسي يأتي لأخذها من هناك .

ولقد كان الشيخ قاسم هو الضابط المسؤول عن عمل تلك الخلية ؛ فلقد كان ينسق أعمالها مع أخ مجاهد اسمه "صالح التلحمي" ، وبعد عدة عمليات ناجحة قررت مع الإخوة أبي علي السلوادي وأبي أحمد الخطيب أن توسيع نشاط تلك الخلية المقدسية ؛ خلية وائل العباسى ، ولقد جاء هذا القرار بعد عملية جبانة قذرة أقدمت عليها قوات البرابرة الصهاينة .

فلقد قامت تلك القوات بقصف سيارة زوجة القيادي بحركة حماس "حسن أبو كويك" ، لم يكن الشيخ حسن أبو كويك في تلك السيارة أصلاً ؛ في سيارة زوجته التي كانت تُقلّ أطفالها بعد انتهاء اليوم الدراسي ، فاستشهدت واستشهدت أبناؤه أيضاً واستشهد عدد من التلاميذ في المدرسة من الذين كانوا بالمكان ؛ ولذلك كان لا بد من توجيه "العقاب" للعدو الصهيوني عبر عملية موجعة وسريعة ، فكانت القدس هي الهدف ، ووائل العباسى هو من استطلع وأعد الترتيبات اللازمة لإيصال الاستشهادى إلى المكان المناسب ، وهو مطعم ومجهز "مؤمن" .

أهمية هذا المجهز تكمن في أنه يقع على بعد أمتار قليلة من بيت رئيس حكومة العدو الصهيوني شارون ، والأهم هو رواد هذا المجهز "مؤمن" ، فلقد كانت المعلومات تشير أنه دائماً وفي تلك الفترة من اليوم يمتلىء المجهز بموظفين في الحكومة الصهيونية ؛ الذين يقضون فيه أوقاتهم ليكونوا قريين من رئيس حكومة الإرهاب الصهيوني شارون .

وهنا أحضر لي سيد الشيخ قاسم ؛ الاستشهادى "فؤاد الحوراني" ، فقمت بتجهيزه بحزام ناسف ثم بتصويره وكتابه وصيته ؛ وبعد ذلك إلباسه ملابس تناسب الموقع الذي سوف يتوجه إليه ، حدث ذلك خلال ساعتين لا أكثر ، عاد سيد القاسم بعدها ليجده جاهزاً مستعداً ،

فاصطحبه معه ليوصله إلى وائل العباسي الذي عمل مع مساعديه من الإخوة القساميين على إيصال الاستشهادي إلى موقع العملية .

قدر الله أن يصل الاستشهادي فؤاد الحوراني بسلام إلى القدس ، قادماً من مدينة رام الله رغم أن الوقت كان ليلاً ، ورغم وجود عدد كبير من الحواجز العسكرية الثابتة والمحركة ، وقدر الله أن يقترب أكثر فيصل إلى بعد عدة أمتار من مقر شارون ؛ من بيته في القدس ، وما إن دخل الاستشهادي فؤاد الحوراني حتى فجر نفسه مخلفاً عشرات القتلى والجرحى الصهاينة ومنهم عدد من موظفي حكومة العدو وتحديداً موظفي شارون العاملين في وزارة الخارجية .

بعد تلك العملية جنون شارون وصب جام غضبه على الضفة الفلسطينية فقام بشدید الحصار حول المدن دون أن يقتحمها ، وعلى قطاع غزة من خلال زيادة عمليات القصف ، ولأنه لم يتمكن من الوصول لمقاتلي كتائب عز الدين القسام ؛ فلقد استهدف القيادة القساميين ، وهكذا قصف شارون قطاع غزة موجهاً قذائف طائراته نحو المهندس "إسماعيل أبو شنب" ، ذلك المهندس المدني والقائد السياسي ، فاستشهد ، وخرج بعد استشهاده أسد فلسطين "عبد العزيز الرنتيسي" ليتوعد بالحساب والعقاب .

ولأن الأمور كانت تسير بوتيرة سريعة جداً ؛ فلقد كلفت خلية وائل العباسي بأن تستطلع مكاناً آخر خارج مدينة القدس المحتلة ، لكي لا تثار الشبهات حول تلك الخلية ، فلقد طلبنا منهم أن يكون المكان بين وسط وشمال فلسطين المحتلة ، ولقد وجدوا مكاناً مناسباً ، والأهم هو أنهم وجدوا استشهادياً مناسباً جداً لتلك العملية ، ولأن أسد فلسطين قال عندما توعّد بالرد

والعقاب أن الرد سوف يكون مزللاً وأن بنيان الصهاينة سوف يُهدم على رؤوسهم ، فلقد كانت عملية مزدوجة مركبة ، بحيث قمت بإعداد حزام ناسف لاستشهادي ليضعه حول جسده ؛ وقمت بصناعة عبوة ناسفة شديدة الانفجار ووضعتها داخل حقيبة ، طلبت من الاستشهادي أن يزرعها في أحد أركان موقع العملية المستهدفة ، هذا الاستشهادي قام بدور حاسم بتحديد موقع العملية مع وائل العباسى ، فلقد كان يعرف دروب الجبال والوديان ، ولأن المدن كانت محاصرة ولأن العدو حاصر مناطق العبور إلى أرضنا المحتلة عام ١٩٤٨ م ، فلقد اضطررنا لسلوك الجبال للوصول إلى الأهداف التي أردنا تنفيذ العمليات فيها .

وهكذا فلقد صنعت حزاماً ناسفاً من نوع مختلف عن الأحزنة الناسفة التي كنت قد صنعتها فيما سبق ؛ فهذا الحزام كان يربط حول الخصر ويثبت أيضاً حول الكتف عن طريق حزام جلدي ، ولأنه يجب أن يكون الحزام قوياً ثابتاً على جسد الاستشهادي خلال قطعه لمسافة طويلة سيراً على الأقدام قاطعاً جبالاً وودياناً ؛ فلقد كانت المواد المصنوعة منها المادة مناسبة حتى لا تتأثر بالضغط أو الحرارة أو الحركة الناتجة عن المشي ، ولقد زودته أيضاً بعبوة ناسفة ووضعتها في حقيبته ، ولأن ذلك الاستشهادي كان يملك جسداً قوياً وبنية جسدية كبيرة ؛ فلقد كان رغم صعوبة قطع الجبال قادرًا على الوصول للطريق الآخر ، حيث لقيه هناك وائل العباسى ونقله بسيارته إلى نادٍ للقمار اسمه نادي "سفره" وهناك زرع الحقيقة الناسفة في إحدى أركان النادي الليلي وفجّر نفسه بواسطه الحزام الناسف في الركن الآخر من النادي الليلي ، ولأن النادي الليلي كان في إحدى الطوابق العليا لبنيان تجارية ؛ فلقد انهارت أجزاء كبيرة من تلك البناء التجارية جراء قوة المواد المستعملة في تلك العملية ، هذا الاستشهادي لم أذكر اسمه لأنه كان

أحد ألغاز العمل المقاوم ؛ لغزاً قسامياً ، فلقد كان هذا الاستشهادي قد قدم من الأردن ؛ ولأنه كان على علاقة وطيدة بعدد من عناصر حركة المقاومة القسامية ، فلم نشاً أن يعرِف أحد اسمه إلا بعد مرور ما يزيد عن ثمانية أعوام على هذه العملية ، ولم نعلن عنه إلا بعد أن شاهدتُ وأنا أقبع داخل زنزانتي نداءً موجهاً من والدته في الأردن تطالب بمعرفة مصير ولدها .

وهنا أعلنت كتائب الشهيد عز الدين القسام عن اسم منفذ تلك العملية الاستشهادية ؛ العملية التي قُتل فيها عشرات الصهاينة وأصيب المئات ، ولقد كان الاستشهادي يعلم أنه لن يتم الإعلان عن اسمه لتلك الأسباب قبل أن يقرر تنفيذ العملية ، ولأنه يعلم أن فلسطين المقاومة تستحق كل تضحية ؛ فلقد أقدم على الشهادة مجتازاً الجبال والوديان حاملاً معه وزناً كبيراً من المواد الناسفة .

يشهد الله على الرغم من أنني لم أقابل هذا الاستشهادي ؛ إلا أن من قابلوه أبلغوني أنه أمير الاستشهاديين ؛ أمير طلب الشهادة بإلحاح وأصر عليها وأجلها اجتاز الصعب ووصل إلى هدفه مقداماً ثابتاً عازماً على أن يلقن العدو درساً في المقاومة .

عذرًا أم الشهيد ، عذرًا أبا الشهيد ، عذرًا أهل الشهيد ؛ على تأخر كتائب عز الدين القسام عن الإعلان عن اسمه للأسباب التي ذكرت ، وعذرًا لأنني لم أكتب اسمه بين صفحات هذا الكتاب ، لأنني أكتب من داخل زنزانتي ؛ ولم أتمكن من الحصول على اسمه بسبب سجني ولأنني معتقل في زنزانة خاصة ، اسمها زنزانة العزل الخاص ، زنزانة تملؤها كاميرات المراقبة ويمنع فيها زيارات المحامين ، زنزانة أقرب ما تكون إلى القبر ، بل هي القبر بذاته.

تالا خلت الحصار !!



نعم يا ابتي الجميلة ويا ملاكي الحارس ، لقد كنتِ تحت الحصار ! فلقد أصبحت أنت وأمك وأخوك أسامة ؛ أسامة الغضنفر ، تحت الحصار والمراقبة الشديدة من قبل عمالء الاحتلال ومن قبل عمالء الأجهزة الأمنية الفلسطينية .

لقد كانوا يحاصرون كل حركة تقومين بها أنت وأمك وأخوك ، فلقد وصلتني معلومات من خلال وحدة الرصد الخاصة التي كانت مكلفة بمتابعة عمل جهاز الأمن الوقائي ، أن هذا الجهاز لم يكتف بعملائه الذين كانوا يراقبون البيت من الخارج ليلاً نهاراً ؛ بل أنه أرسل عميلاً خاصاً بعد أن قام بتدريبه بمنطقة أريحا تدريباً احترافياً على يد مدير استخبارات حضر من الولايات المتحدة الأمريكية ، كان قد أرسله "جورج تنت" ليدرب ذلك العميل ويزرعه داخل منزلي ؛ ذلك المنزل الذي كنت أنت وأمك تقيمان فيه مع أخيك الصغير أسامة .

الصعب بل المحرزن بالنسبة لذلك العميل أنه كان من أقاربى ؛ من أبناء عائلة البرغوثي ! وكان صغير العمر ويمت بصلة القرابة مباشرة مع زوجتي ! ولقد كلفَ هذا العميل بمتابعة ما يدور داخل المنزل لعله يتمكن من الوصول إلي ، ولقد كان من المفترض أن يقوم بزرع أجهزة تنصت داخل منزلي بالإضافة إلى كاميرات للمراقبة .

لكن الله خير الماكرين ، فيمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، الله عز وجل الذي

سَهْل وصول المعلومة إلى عبر جهاز الرصد ؛ مما جعلني أقوم بعملية من نوع آخر لم أقم بها من قبل وهو كسر الحصار وتهريبك مع أمك وأخيك بعيداً عن القرية ؛ قرية بيت ربيا لِتَصْلِي إِلَى ، إلى البيت الآمن .

فبمجرد وصول تلك المعلومة التي حددت موعد انتهاء الدورة التدريبية لذلك العمل وموعد وصوله من أريحا إلى قرية بيت ربيا محملاً ومزوّداً بتلك الأجهزة السمعية والبصرية التي كان مكلفاً بزراعتها في بيتي ؛ فلقد كانت هناك وحدة خاصة قسامية قامت باعتقاله قبل أن يقوم بأي نشاط ، وقامت فرق قسامية أخرى بنقل زوجتي وأطفالتي من القرية إلى رام الله بشكل سري، وبعد ذلك قاموا بنقل العميل أيضاً إلى رام الله لأبدأ التحقيق معه بشكل شخصي ، أجمل ما في ذلك التحقيق ؛ هو أنه ما إن جلس على الكرسي حتى بدأ العميل بسرد قصته لوحده دون أن يوَجَّه له سؤال واحد ! وبعد ما أنهى سرد ما عنده وجهت له بعض الأسئلة الخاصة حول مواجهات متعددة .

مما قاله أحدهم أثناء التدريب بمنطقة أريحا على يد ذلك المدرب الأمريكي الذي يتحدث اللغة العربية هو أن المدرب طلب منه أن يشتري لك يا ابنتي الصغيرة بعض الحلوي لكي يستدرجك بالكلام عنك ، رغم أن عمرك لم يكن قد تجاوز العامين بعد ؛ إلا أنهم كانوا يريدون أن يعرفوا أي شيء مهما كان صغيراً ، فلقد علمت أيضاً من خلال جهاز الرصد القسامي أن مكالمة قد جرت بين عرفات و "جورج تنت" مدير المخابرات الأمريكية ؛ حيث حدث على إلقاء القبض على ، كما حدث أيضاً في تلك المكالمة على إلقاء القبض على الأمين العام للجبهة

الشعبية لتحرير فلسطين الرفيق أحمد سعدات ، فلقد كان الرفيق أحمد سعدات مطلوباً بشكل كبير جداً جداً ؛ لأن الصهاينة كانوا قد اتهموه بتنفيذ عملية نوعية جداً قُتل فيها وزير السياحة الصهيوني "رحبعام زئيفي" .

بعد انتقال زوجتي وأطفالى ليعيشوا في إحدى المنازل الآمنة في مدينة رام الله ، أصبح من السهل على زيارتهم هناك ، وهكذا أصبحت زوجتي مطلوبة لقوات الاحتلال من جهة ؛ ومطلوبة من قبل قوات أمن السلطة من جهة أخرى ، فعممت لها صورة ، مما جعل تنقلها صعباً جداً ، حيث إن قوات الاحتلال كانت تضع عدداً من المجنادات على الحواجز لفحص النساء والتدقيق بصورهنّ .

ولهذا ، فقد ظلت زوجتي طوال فترة المطاردة تعيش في مدينة رام الله ، لم تكف أجهزة أمن السلطة عن البحث عنها أو عنى ، مما جعل أقاربي عرضة للاعتقال لدى تلك الأجهزة وتعريض منازلهم للمداهمة الدائمة والتفتيش المستمر بتلك الحُجة .



الشهيد صلاح شحادة



في إحدى الليالي قامت طائرة من طراز (إف 16) بقصف إحدى البنيات السكنية بمدينة غزة في حي اسمه "حي الدرج" ، تم قصف تلك البناءة بتقنية ضخمة حولتها إلى أنقاض ، فاستشهد الشقيق "صلاح شحادة" قائد كتائب الشهيد عز الدين القسام في فلسطين واستشهد معه زوجته وبعض أطفاله ، واستشهد أيضاً عدد من سكان تلك البناءة السكنية ومن سكان المنازل المحيطة بها ؛ ولذلك وجب أن ترد الكتائب على تلك الجريمة النكراء ، ولكن كيف نرد ونحن نعيش داخل سجن حقيقي في مدينة رام الله ؟ ! سجنٌ فَرَضَ علينا القتال المستمر مع العدو والمواجهة الدائمة معه في قلب المدن الفلسطينية .

قبل فترة من استشهاد القائد "صلاح شحادة" قام مهندس فلسطيني قسامي بعملية نوعية قلبت موازين وقواعد المواجهة ، ذلك المهندس ابن مدينة طولكرم "عباس السيد" .

"عباس السيد" هو مهندس فلسطيني درس الهندسة في المملكة الأردنية ، وأنهى دراسته في نفس العام الذي بدأت أنا فيه الدراسة بكوريا الجنوبية ، أي بعد حرب الخليج الأولى ، ولقد كان أثناء دراسته ناشطاً في جماعة الإخوان المسلمين ، ولذلك كان ولكونه فلسطينياً يتعرض للمضايقات والمطاردة من قبل أجهزة الأمن الأردنية آنذاك .

عاد عباس السيد إلى فلسطين وأكمل نشاطه السياسي بانضمامه لحركة المقاومة

الإسلامية حماس بمدينة طولكرم ، وتردّج حتى أصبح مثلاً وناطقاً في تلك المدينة ، ومع اندلاع انتفاضة الأقصى ظل يمارس عمله السياسي كالمعتاد ، إلا أن هذا المهندس الهادي قرر أن يتوجه للعمل العسكري بعد أن أزدادت جرائم الاحتلال وفاقت الوصف ، ففي تلك الفترة لم يكن يكاد يمر أسبوع واحد بدون مجررة أو جريمة ترتكب ضد أبناء الشعب الفلسطيني في مختلف بقاع فلسطين .

لذلك قام هذا الذكي الهادي ؛ هذا المهندس عباس السيد بتشكيل خلية قسامية وقام بإعداد عبوة ناسفة هي الأضخم والأقوى في تاريخ كتائب القسام في الضفة الغربية والقدس ، وأرسل تلك العبوة مع استشهاديه إلى أحد الفنادق ، فانفجرت العبوة واستشهد المقاوم ، ولقد خلفت تلك العبوة قربة ستة وثلاثين قتيلاً صهيونياً وعدة مئات من الجرحى ، جزء كبير منهم أصيبوا بإعاقات دائمة .

وهنا اتخذ رئيس حكومة العدو تلك العملية ذريعة فقام باجتياح كافة المدن الفلسطينية ، وبعد ذلك الاجتياح قُصِفت غزة واستشهد الشيخ صلاح شحادة رحمة الله عليه .

وهنا أصبح الرد على جريمة اغتيال قائد كتائب القسام واجباً ، ولكن الطرق كانت قد أصبحت أكثر صعوبة على تنفيذ هذا الرد ؛ بل أصبحت أكثر خطورة من أي وقت مضى ، فلقد قلت أنا كنا نعيش داخل سجن ، وأنا أعني ذلك بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، فلقد حولت قوات العدو الصهيوني البناء السكني التي كانت تقع فيها شقة زوجتي وأطفالي إلى ثكنة عسكرية ، وحولت سطح المبني إلى مرتع للقناصه وأساسات المبني إلى مرتع للدبابات

وال المجذرات ، وحولت كل شوارع المدينة إلى طرقات خالية بعد أن قامت الجرافات الصهيونية بحفر حفر كبيرة تقطع تلك الشوارع ، ولم تكتف بذلك فحسب ؛ بل فرضت حظراً للتجوال دام أياماً طويلاً ؛ وصلت إلى خمسة وعشرين يوماً متواصلة ، رفع بعدها حظر التجوال لعدة ساعات ثم أعيد فرضه من جديد .

خلال تلك الساعات القليلة تمكنت من الوصول إلى إحدى الشقق التي لم يصل إليها العدو ، وكانت تحتوي على كل ما أحتاجه لإعداد العملية ، عملية الرد على اغتيال صلاح شحادة رحمة الله عليه ، ولقد كان معه في تلك الأثناء مراقباً سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب ، ولقد صنعت عبوة ناسفة ووضعتها في حقيقة وأرسلتها مع سيد القاسم لنقطة تم الاتفاق عليها مسبقاً مع وائل العباسي ؛ فأخذ العبوة وأوصلها للقدس المحتلة ، وهناك قام مع مجموعة من رجاله المقاومين بقصد أسوار الجامعة العبرية بالقدس ؛ وفجروا تلك العبوة عبر هاتف محمول ، وبذلك ورغم الاجتياح والحصار ، تمكنا من الرد وبقوة في قلب العاصمة الأبدية لدولة فلسطين بإذن الله .

فتحت تلك العملية الأعين على خلية وائل العباسي مما جعل عمل تلك الخلية صعباً ، ولكن ؛ ولأن تلك الخلية كانت تملك عدداً من العبوات الناسفة الصغيرة التي لا يتجاوز وزن الواحدة منها نصف كيلو جرام ، فلقد تمكنا من تنفيذ قربة أربع عمليات استهدفتا خلايا صواريخ للوقود عبر إلصاق تلك العبوات بها ، واستهدفتوا أيضاً عدداً من عربات القطار من خلال زراعة العبوات بمناطق قرية من العربات .

بعد ذلك بأيام معدودة اعتقل أفراد تلك الخلية القسامية التي كانت أكبر خلية لكتائب الشهيد عز الدين القسام بمدينة القدس منذ قامت دولة العدو باحتلال تلك المدينة .

وهنا على الفور بدأت بتنشيط خلية قسامية جديدة ، كنت قد دربت من أوكلت له أمر قيادة تلك الخلية القسامية قبل عدة أشهر وهو المهندس القسامي "محمود شريتح" ابن مدينة الظاهرية التي تقع جنوب الضفة الغربية بجوار مدينة الخليل ، فلقد كان المهندس محمود محمود شريتح يدرس الهندسة بجامعة يحيى عياش ؛ جامعة بيرزيت ، ولقد كان من أنصار الكتلة الطلابية هناك ، فاختاره أبو علي السلوادي ليكون مهندسنا في جنوب الضفة الغربية ، فقمت بإعادة تدريبه من جديد رغم أن المدن كانت محتلة من قبل دبابات العدو ، وقمت بالإعداد معه لعمليتين استشهاديتين ؛ فزودته بقطع السلاح اللازم لتشكيل خلية مسلحة تتصدى لقوات الاحتلال بجنوب الضفة الغربية ، وزودته بحزامين ناسفين فأوصلهما لمدينة الظاهرية ، وهناك أعد مع الخلية التي قام بتشكيلها الخطة الالزمة ؛ فنفذ انطلاقاً من الجنوب عمليتين استشهاديتين ، فجرّ خلاهما الاستشهاديان أحزمتهما النassefة بحافلتين اثنتين داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ، كانت تلك الخلية خلية المهندس محمود شريتح من أسرع الخلايا تشكلاً ، ومن أسرع الخلايا اعتقالاً ، فلم تدم تلك الخلية سوى عدة أسابيع فقط لا غير ! نفذت خلاها عمليتين استشهاديتين وبعد ذلك اعتقل كل أفراد تلك الخلية وعلى رأسهم مهندسها وقائدها محمود شريتح ، وهنا قمت باستدعاء مقاوم آخر ممن قمت بتدريبهم سابقاً لكي أعيد تدريبيه وإعداده من جديد .

هذا المقاوم الوحيد الذي وجهت له توبیخاً قاسياً عندما قمت بتدريبه أول مرة ، فعند بدء

التدريب كنت أنا وهو وعنصر آخر معه مقتنين ، وكنا نتكلم باللغة الفصحي ، فقال لي أنه يفضل أن يتلقى تدريبي على العلوم العسكرية على يد المهندس عبد الله البرغوثي ، قبل أن أسأله عن السبب قال أنه يريد أن يتقن عمله العسكري من عبد الله البرغوثي لأنه يشكل بالنسبة له امتداداً ليحيى عياش ، فوبخته بقسوة وقلت له ليس هناك من هو بمرتبة الشهيد يحيى عياش ؟ وأن هذا الذي اسمه عبد الله البرغوثي ما هو إلا مجرد مهندس عادي ؛ بل أقل من عادي ، ولقد قسّوت عليه قليلاً أثناء التدريب ، الغريب في هذا المقاوم أن أبا علي السلوادي عندما أحضره للتدريب أول مرة لم يُشر بهويته سوى أنه مقاوم قسامي ؛ فأعطيته اسم رمزاً للتواصل معه مثل باقي المقاومين الذين سبق لي تدريبيهم ، ولكنه أفسح لي فيما بعد أنه أحد أبناء عمومتي وأنه المقاوم القسامي "جاسر البرغوثي" ابن قريتي ، ولم أعلم حقيقة هويته إلا بعد اعتقاله بعده سنوات عندما التقينا صدفة في أحد السجون ، فتعرفنا على بعضنا البعض بعد أن علم هو حقيقة هويته وعلم أن من قام بتدريبي آنذاك هو عبد الله البرغوثي ابن عمه .

هذه هي كتائب الشهيد عز الدين القسام ، الصمت والسرية والعمل الجاهدي المتواصل دون كلل أو ملل ، لقد استطاعت خلية المقاوم القسامي "جاسر البرغوثي" بعد أن عاودت تدريبه مرة أخرى وتزويده بعدد من العبوات الناسفة والأسلحة المختلفة استطاع أن ينفذ عدداً من العمليات الموجعة للعدو الصهيوني .

في تلك الفترة خشيت من أن يكون مصير خلية المقاوم جاسر البرغوثي الاعتقال المبكر مثل خلية المهندس محمود شريتح ، ولذلك قمت بتنشيط عدد من الخلايا القسامية في عدة مدن

أخرى كان أهمها على الإطلاق مدينة الخليل ؛ خليل الرحمن ، لأن مدينة الخليل كانت تملك الآلاف من المقاومين القساميين ، وكانت بحاجة للمهندسين والقادة ، فمنَّ الله على خليل الرحمن بالقائد الحاج عبد الله القواسمي وأبناء أحد إخوانه ، فتجلت مدينة خليل الرحمن وأخرجت أجمل وأحلى العمليات القسامية في تلك الفترة المحرجة ، فترة الاجتياحات .

وهنا يجب أن أوضح نقطة مهمة وهي أنني لم أكن أعلم أي اسم من أسماء المقاومين الذين عملت معهم طوال تلك الفترة الممتدة ما بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٠ ، وأن الأسماء التي ذكرها الآن قد عرفتها بعد سنوات من اعتقالي ، فهي ليست أصحاب تلك الأسماء ، فهم إما معتقلون مثل محمود شريتح ووائل القاسم وجاسر البرغوثي وأحلام التميمي وغيرهم ؛ وإما ارتقوا شهداء عند ربهم يرزقون .

فلقد كان موضوع الأسماء خطأً أحمر منع أحداً من الاقتراب منه ، ولذلك أقول أن الشهيد سيد الشيخ قاسم رغم أنه رافقني على مدى تلك الأعوام هو وأبو أحمد الخطيب إلا أنني رفضت أن أعرف أسماءهم رفضاً تاماً ، وكنتُ أحرص دائماً على أن تكون الخلايا التي أشكلها متقدمة من ناحية القيادة والإدارة ، حتى لا يؤدي اعتقال أحد تلك الخلايا إلى إحداث ضرر كبير بكتائب القسام .



الاجتياح



في إحدى الاجتياحات الصهيونية للمدن الفلسطينية تم اجتياح مدينة رام الله والبيرة ، وتم محاصرة مقر جهاز الأمن الوقائي بالدبابات ، لم يكن هذا الحصار سوى لعبة أقدمَ عليها أحد أخطر العملاء في تاريخ الشعب الفلسطيني وهو "محمد دحلان" بالتنسيق مع قوات الاحتلال الصهيوني وجهاز الشاباك من أجل هدفين : أولهما أن يقضي على منافسه القوي آنذاك في الضفة الغربية جبريل الرجوب ، وأن يزيحه من طريقه ليستولي محمد دحلان على الأجهزة الأمنية في الضفة الغربية ويسطير عليها كما سيطر على تلك الأجهزة في قطاع غزة .

فلقد كان عرفات في تلك المرحلة محاصرًاً وضعيفاً ، فأراد دحلان أن يكون رجل "جورج تنت" ورجل شارون في الضفة الغربية ؛ واعداً إياهم بعد تسلمه وسيطرته على الأجهزة الأمنية بأن يقضي على المقاومة المسلحة بشكل تام وكامل .

هذا السبب رغم خطورته لم يكن يعنيني كثيراً ؛ فكلهم سواء ، جبريل الرجوب أو محمد دحلان كلاب للاحتلال ، لا أكثر ولا أقل ، أما السبب الذي كان يعنيني هو أنه يوجد داخل ذلك المقر العشرات من مقاتلي القسام والجبهة الشعبية ومنهم بلال البرغوثي ابن عمي ورفيق دربي في مقاومة الاحتلال .

ولذلك خضت عدة معارك وكمائن من أجل فك الحصار دون جدوٍ ودون أي فائدة ،

فلقد كانت القوات الصهيونية أقوى منا بكثير من ناحية العتاد والسلاح ، وبخاصة سلاح الجو ،
فلقد كانت طائرات الأباتشي تتصف دون توقف بأي هدف تشتبه به .

اعتقل بلال البرغوثي واعتقل العشرات من المقاومين ذلك اليوم بعد أن تكاتف العملاء مع العدو الصهيوني ضد المقاومة ، حزنت ؛ بل لقد بكيت لأنني شعرت بضعف أمام آلة الدمار الصهيوني ، وخاصة عندما كنت على بعد أمتار أشاهد إخوتي وهم يعرون من الملابس ويقادون إلى مجزرارات العدو لينقلوا إلى المعتقلات الصهيونية ، لم أشعر بلحظة ضعف مثل تلك المرة طوال حياتي ، حياتي التي رأيت فيها كل ما يمكن رؤيته ، وكل ما يمكن أن يؤثر على أقصى الرجال ؛ إلا أنني لم أتأثر أبداً إلا في ذلك اليوم وتلك الليلة التي كانت من أطول الليالي في حياتي على الإطلاق !

ما أن بزغ الفجر حتى عدت إلى زوجتي وابني أسامة وابتي لكي أودعهم متضرعاً بعد ذلك إلى الله عز وجل لعلي ألقاه شهيداً ، ودعتهم وتوجهت أنا وسيد القاسم وأبو أحمد الخطيب إلى منطقة وسط رام الله ، وهناك في منطقة سوق الخضار وبجوار مسجد جمال عبد الناصر ، خضنا اشتباكاً مسلحاً دام قرابة العشرين يوماً فجّرنا خلالها العشرات من العبوات الناسفة ؛ وأطلقنا المئات من الرصاصات ولم نُنهِ تلك المعركة إلا عندما تلقيت قذيفة أطلقت من إحدى الدبابات فأصابت القذيفة المكان الذي أهاجم العدو منه ؛ فأصبت إصابة شديدة كدت أفقد منها يدي اليمنى ، فنقلني إخوتي سيد وأبو أحمد إلى إحدى المحلات التجارية ، وهناك عولجت ، ولقد تركت تلك القذيفة أثراً لها على من عدة نواحٍ ؛ الناحية الجسدية فلقد أصابت

ذراعي بالكسر من عدة أماكن ، وكاد كف يدي أن يبت ، وكدت أفقد إصبعي ؛ بل أهم أصابع يدي وهو إصبع السبابية الذي كنت أطلق به زخات الرصاص ؛ فلقد أصيب ذلك الإصبع وتم تغريزه بما لا يقل عن ثمانين غرز ، مما جعلني غير قادر على خوض المعارك المسلحة لعدة شهور بعد تلك الإصابة .

وهنا يجب ألا أنسى أن أخي أبا علي السلوادي عندما علم بعد ذلك جن جنونه ، ولكن أحمد الله أنه علم بعد أن تمثلت للشفاء .

أما من الناحية النفسية فقد جعلتني أقرب إلى الله عز وجل من أي وقت آخر.



قلب أمي



في إحدى مراحل مطاردي تعرض قلب والدتي للجلطة مما أدخلها المستشفى لتخضع لعملية جراحية ؛ حيث كانت تقيم هي والدتي في العاصمة الأردنية عمان ، وعندما وصلني الخبر كان لزاماً علي أن أطمئن عليها بنفسى رغم أن هناك من كان يزورها ويطمئنني عليها ، إلا أنني ولخطورة وضعها قررت أن أطمئن عليها بشكل مباشر وأن أطمئنها علي لكي أرفع من معنوياتها وأشد من عزيمتها ؛ فلقد كان قد مضى على مطاردي عدة أعوام لم أتمكن من الحديث الهاتفي معها أو مع والدتي بشكل نهائى .

ويجدر القول هنا أنني طوال فترة مطاردي لم أستعمل الهاتف الجوال أبداً وتحت أي ظرف من الظروف ؛ بل كنت أسافر من مدينة إلى مدينة لكي أنهي أمراً لا يتجاوز الحديث عنه سوى بضع دقائق ، فلقد كنت أعلم مدى خطورة استعمال تلك الهواتف النقالة ومدى قدرة العدو على تعقب المكالمات وتحديد موقع المتصل ، ولأن العدو يملك عدداً من طائرات الاستطلاع المزودة بصواريخ موجهة تحلق على مدار الساعة في أجواء مختلف المدن الفلسطينية ، فلقد كان الحديث عبر الهاتف الجوال ضرباً من ضروب الجنون .

الجنون والتحدي هو عشقى وهو ايتى ، ولذلك رفعت الهاتف الجوال وتحدثت مع والدتي لعدة دقائق ، وما أن انقطع الإرسال حتى أمسكت الهاتف الأرضي وعاودت الاتصال

ثانية بعد أن اطمأنَّ كلامنا على الآخر ، وبعد أن أصبحت معنويات والدتي عالية تعانق السماء فلقد مازحتها كثيراً حتى قيل لي إن عينيها اللتين كانتا تبكيان على فرافي وتبكيان حزناً علي ؛ أصبحتها تذرف الدموع من شدة الضحك على النكت التي كنت أقوها لها ، بتلك البساطة اتصلت ؛ وبتلك البساطة كانت خطوط الاتصال تقطع الواحد تلو الآخر ، أما سبب تلك الانقطاعات فلقد كان سقوط القذائف الواحدة تلو الأخرى ، أين وكيف ؟

عندما اتصلت أول مرة من هاتف نقال وبعد عدة دقائق تجاوزت الخمس عشرة دقيقة أو أقل ، قامت قوات الاحتلال عبر طائرة الاستطلاع بقصد سيارة متوقفة بأحد شوارع مدينة نابلس بعدة صواريخ موجهة ، فلقد قمت بتركيب شبكة من أجهزة مقاومة التعقب وأجهزة بتوجيه التعقب نحو مكان آخر وركبت تلك الأجهزة على بعض أبراج الإرسال وركب أحدها على إحدى السيارات التي قمت بشرائها وتجهيزها لهذا الهدف ، وهو تضليل أجهزة العدو الاستخبارية والإلكترونية ، فقصص العدو السيارة ظناً منه أنني موجود داخلها وأجري تلك المكالمات منها ، فأصبحت السيارة كومة من الصفيح المحترق !

أما أنا فتناولت تفاحة من صحن للفاكهة كان أمامي ووضعتها بعد أن قطع إرسال الجهاز النقال واتصلت من جهاز اتصال أرضي هذه المرة ؛ وبدأت بأكل التفاح الواحد تلو الآخر ، وبالحديث مع والدتي وإلقاء الطرائف عليها الواحدة تلو الأخرى ؛ حتى أني أقول أنه رغم عدم سماعها لصوتي منذ مدة طويلة إلا أنها ملت من تلك الطرائف ؛ فكنت أودعها مراراً دون أن يغلق أحدنا السمعاء ؛ حتى قام الاحتلال بإغلاقها هذه المرة أيضاً بواسطة قذائفه ؛ فلقد داهمت

قوات الاحتلال الصهيوني أحد المباني السكنية التي كانت قيد الإنشاء وبمراحلها النهائية ، وأمطرت تلك البناء بوابل من القذائف وطالبتني القوات بتسليم نفسي .

وعندما لم أستجب لهم قامت القوات باقتحام تلك البناء ، ولقد سبقت جنودها المقتربين كلاًّ تحمل كاميرات مراقبة تنقل لهم الصورة ، وتنقل لي أيضاً نفس تلك الصورة ! فلقد كنت في مرحلة سابقة قد فككت الشيفرة المستعملة بإرسال الصور عبر تلك الكاميرات ، فأصبحت أرى ما يرون ، وعندما قمت بتفجير عبوة ناسفة أدت لقتل أحد الكلاب وإصابة أحد الجنود .

أما أنا فرغم عمليات البحث والتفتيش التي استمرت لساعات عديدة فلم يجدوني لأنني في تلك الأثناء كنت منشغلًا بأكل البرتقال بعد أن لم يعد لدي تفاح ! لم أكن بمدينة نابلس حيث فجروا السيارة ولم أكن بمدينة رام الله حيث دمروا تلك البناء ، بالمناسبة تلك البناء تعود لأحد عملاء إسرائيل الذين كانوا يتاجرون بالأراضي الفلسطينية ويبيعونها للصهاينة ؛ ولذلك فلم أهتم بدمار تلك البناء بل كنت مسروراً جداً لما حل بها .

كنت هناك جالساً على إحدى الشرفات المطلة على المسجد الأقصى في القدس ، كنت هناك في قلب المدينة المقدسة ، وهنا حمدت الله على نجاتي وعلى تلك الصفعة التقنية التي وجهتها لذلك العدو ، لقد كلفت تلك الصفعة التقنية عدة عشرات الآلاف من الدنانير ، وعدة أيام من العمل المتواصل من قبل رجال كتائب القسام أعز الله بهم الإسلام وأعز الله بهم فلسطين؛ أم الرجال وصانعة الرجال .

آه من قلب أمي وألف آه ، دعواتك لي يا أغلى مخلوقة بالوجود، يا أمي الحبيبة ، دعواتك
دعواتك .





صفعتها ، فهل ينتقض وضوئي ؟!

لقد حدث أني قمت بصفع امرأة ليست من محارمي على خدها ، فهل ينتقض وضوئي
جراء تلك الصفعة ؟

الصحيح أن الإجابة على هذه الأسئلة الدينية لم تكن هي ما يشغل بالي ؛ لأنني لا أذكر
أصلاً أكنتُ على وضوء عندما صفعتها أم لم أكن على وضوء ؛ وبعد أن صفعتها توضأت
وصليت .

إن الذي كان يهمني هو سبب تلك الصفعة ، صفعة قوية ؛ بل إنها مؤلمة جداً تلك التي
نالتها المرأة مني ، تعود جذور تلك الحادثة عندما أوصل لي جهاز الرصد القسامي عدة طلبات
من امرأة تطلب لقائي لأمر هام ، ولقد كانت تلح كثيراً على هذا الطلب ، ولأن الناحية الأمنية
كانت لا تشكل خطراً علي ؛ فلقد وافقت على لقائهما بعد أشهر من تكرار الطلبات .

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، خيراً يا أختي ؟
- أريد أن أكون شهيدة في سبيل الله .
- هناك مئات من الاستشهاديين الرجال يتظرون دورهم للمشاركة في هذا النوع من
العمليات .

- ألم تعمل أحلام التميمي معك ؟
 - نعم عملت ، ولكنني لم أكن أعلم أصلاً أنها فتاة إلا بعد أن اعتقلت .
 - أريد أن أكون شهيدة .
 - لماذا ؟
- و قبل أن تجيب أشرت لها بأن تضع يدها على المصحف الشريف ، صمت طويلاً ثم قالت أنها متزوجة منذ أعوام طويلة ؛ وأنها لم تكن تنجذب وأنها ما إن تحمل حتى يموت الجنين في بطنهما ، وأن أهل زوجها قد أنقلوا عليها و حولوا حياتها إلى جحيم ، وأنه رغم حب زوجها لها إلا أنه لم يعد يقوى على الصمود في وجه أهله ، ولذلك أريد أن أفارق الحياة لأرتاح من همومها .

ما إن رفعت يدها عن المصحف حتى كانت يدي تحط على وجهها كأنها مطرقة ، فسقطت على الأرض باكية وبكت معها إحدى الأخوات التي كانت موجودة هناك مع زوجها المقاتل القسامي .

قلت لها : " اذهب إلى بيتك وكوني واثقة بأن الله سوف يرزقك بثلاثة أولاد وثلاث بنات ، اذهبي وتوكري على الله ، فمشكليتك حلها بسيط ، عودي إلى بيتك ؛ توسيئي وصلي وادعى الله ، الله مجيب الدعاء ، الله الذي يجب أن لا تقنطي من رحمته أبداً " .

تركتها فأوصلتها المقاوم القسامي مع زوجته إلى منزلها ، في الطريق كفت عن البكاء وسألت زوجة المقاوم : " هل قال عبد الله البرغوثي ثلاثة أولاد وثلاث بنات ؟ ! " ، فردت عليها : " نعم ، قال ثلاثة وثلاثة " .

عاد المقاوم القسامي بعد أن أوصل المرأة ، عاد إلى فوجدني صامتاً ، ورغم أنه أمضى طوال اليوم معه إلا أنه لم يسمع صوتي إلا وأنا أقرأ القرآن في الصلاة .

كان هناك سؤال يحيرني : إن فجرت تلك المرأة نفسها هل تكون شهيدة أم قاتلة لنفسها ؟
شهيدة أم قاتلة ؟ فأنا لست بعالم دين ولا أستاذ بعلوم الفقه الإسلامي ، لست مفتياً ؛ وحتى أني لست شيخاً من أولئك الذين يمضون وقتهم في المساجد ودور العلم وبحضور جلسات دروس الدين ، أنا "عبد الله البرغوثي" ، مسلم لا أكثر ولا أقل ، أصلي نعم ، أصوم وأصوم ، وأمارس السنة النبوية قدر الإمكان ؛ نعم قدر الإمكان .

أنا مجرد مهندس قسامي ، مهندس فقط لا غير ، مهندس قسامي لا يكذب أيضاً ، يا الله لقد قلت لها أن الله سوف يرزقها ثلاثة أولاد وثلاث بنات ! يا الله ، نحن الآن في شهر رمضان المبارك ، ولقد وعدت وأقسمت ، أعني يا الله أعني يا الله .

ما هي إلا أيام معدودة حتى كنت أجهز أحد الاستشهاديين ، وأظنه كان أيمن بحر ، فقال لي : " يا شيخ أو صني ، قل لي ماذا تريد أن أقول لنبينا محمد ﷺ إذا ما استشهدت وصعدت روحي للجنة ؟ " ، فقلت له : " سلم عليه ، وادع لي الله أن ييسر لي أمري " ، قال : " هل تريد مني أن أتشفع لك عند الله ؟ فأنا استشهادي " .

وهنا تذكرت الصفعة ، تذكرت المرأة فقلت له : " لا تشفع لي ؛ فسوف يشفع لي أخوك أسامة حلبية إن شاء الله ، أما أنت فأريد منك أن ترجو الله عز وجل أن يبعد الغم والهم عن أخي فلانة بنت فلان ، وأن يرزقها ثلاثة أولاد وثلاث بنات ، فلقد وعدتها بذلك " ، وقصصت القصة

على كل من أسامة حلبة وأيمن بحر .

ما أن انتهى شهر رمضان المبارك وحل العيد الصغير ، وما أن جاء العيد الكبير بعد نحو شهرين ، حتى وصلني خبر حمل تلك الأخت ، وما هي إلا أشهر معدودة حتى كانت قد أنجبت ولداً جميلاً ، أتبعته بعد نحو عشرة أشهر بولد آخر أجمل من السابق ثم ولد ثالث ، أسمته "عبد الله".

تلك الأسئلة الفقهية كانت دائمًا تزعجني ، ولكن الحمد لله أنه كان حولي من الإخوة من هم أكثر مني علماً وعرفة بأمور الدين ، أعلم أنه من يُقتل في سبيل الله ؛ و"الله" وحده فإن مصيره الجنة والمغفرة ، وأن من قتل نفسه لحاجة من حاجات الدنيا الزائلة فإن مصيره العذاب الأليم ونار جهنم ، أعلم ذلك ، ولكني أعلم أنني لست بعالم دين ، فأنا مجرد مهندس على الطريق .





مُجْرِد مهندس ، لا أكثر ولا أقل !

بِاللّٰهِ عَلَيْكُمْ لَا تَحْمِلُونِي أَوْ زَارَكُمْ ، بِاللّٰهِ عَلَيْكُمْ ، هَذِهِ الْمَرَةِ كَادَ أَنْ يُقْتَلَ لَوْلَا سَتْرُ اللّٰهِ وَلَوْلَا لَطْفَهُ بِي وَبِكَتَابِ الْقَسَامِ ، وَصَلَ لِي اسْتَشْهَادِي كَانَ قَدْ أَعْدَهَ إِخْرَوَةً لِتَنْفِيذِ إِحْدَى الْعَمَلَيَاتِ الْاسْتَشْهَادِيَّةِ ، "اسْتَشْهَادِي" ؛ هَكَذَا أَرَادَ هُوَ لَكُنِي لَمْ أُرْدَ ، وَلَمْ أَسْمَحْ لَهُ بِذَلِكَ رَغْمَ أَنْفِهِ !

هُنَاكَ فِي كُورِيَا الْجَنُوبِيَّةِ قَبْلَ دِرَاسَتِيِّ لِلْهِنْدِسَةِ درَسْتُ مَسَاقَاتِ الْأَدْبِ الْكُورِيِّيِّ ، وَكَانَ أَحَدُ تِلْكَ الْمَسَاقَاتِ هُوَ قِرَاءَةُ الْوِجُوهِ وَتَفْسِيرُ تَعَابِيرِهَا ، هُنَاكَ فِي كُورِيَا الْوِجُوهُ أَكْثَرُ إِخْفَاءٍ لِمَا يَكُمْنُ دَاخِلَ الْقُلُوبِ ، أَمَّا هُنَيْ فِي فَلَسْطِينِ ؛ فَإِنَّ الْوِجُوهَ مَرَآةً لِلْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ .

جَاءَنِي بَعْدَ إِجْرَاءَتِ أَمْنِيَّةٍ أَعْدَتْ سَلْفًا لِاستِقبَالِهِ وَإِعْدَادِهِ لِلْعَمَلَيَةِ الْاسْتَشْهَادِيَّةِ ، فَقَمْتُ بِتَصْوِيرِهِ وَإِلْبَاسِهِ الْحَزَامَ النَّاصِفَ وَإِعْدَادِ الْمَلَابِسِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْمَوْقِعِ الْمُسْتَهْدَفِ .

لَمْ أَكُلْمَهُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ أَيِّ سُؤَالٍ طَوَالَ تِلْكَ الْفَتَرَةِ ، لَكِنْ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى الْبَابِ صَافَحَتِهِ وَشَدَّدَتْ عَلَى يَدِهِ وَقَلَتْ : "لِمَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَفْجُرَ نَفْسَكَ ؟ لِمَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَهِيدًا ؟ " .

صَمَتْ وَطَالَ صَمْتُهُ ؛ فَقَمْتُ بِالْإِطَاحَةِ بِهِ أَرْضًا وَتَكَبِّيلِهِ وَفَكِ الْحَزَامِ النَّاصِفِ عَنْ جَسْدِهِ ، وَطَلَبَتْ مِنْ إِخْوَتِي الْمَرَافِقِينَ لِي سَيِّدِ الشَّيْخِ قَاسِمَ وَأَبِي أَحْمَدِ الْخَطِيبِ أَنْ يَنْقُلُوهُ لِلْإِخْوَةِ فِي وَحْدَةِ أَمْنِ الْقَسَامِ .

لم يسألني الإخوة عن سبب ما فعلته ، فلم تكن هذه عادتهم؛ فهم قساميون صامتون ، وهم يعلمون أن الأمر خطير بل أشد من الخطير ، فلذلك سارعوا إلى إيصاله مكبلًا معصوب العينين والقم إلى الإخوة بوحدة الأمان القسامي في الضفة الغربية والقدس الشريف ، ما إن عادا إلى مسرعين حتى أعطياهم عنوان نقطة معينة ، فذهبوا إليها وأحضرا أخاً استشهادياً كان يتظاهر في تلك النقطة ، فقامت بإعداده وتجهيزه وذهب بعد ذلك إلى حال سبيله ؛ إلى لقاء ربه بعد أن وصل ونفذ عمليته الاستشهادية ، بعد ذلك انشغلت عدة أيام بمتابعة أعمال جهادية بمدينة أخرى ، وما إن عدت إلى المدينة التي كانت ساحة تلك الحادثة ؛ حتى ذكرني الإخوة بذلك الشاب ، فذهبت لرؤيته فوجدت شاباً قد أنهى من التحقيق بشكل كامل .

فقلت لسيد الشيخ قاسم : " أنا لم أطلب التحقيق معه ، أنا طلبت أن يوضع هناك لدى أمن القسام فقط لا غير " ، وهنا أقول أن التحقيق معه كان قاسياً جداً أو صله إلى شفير الموت بكل ما تحمله الكلمة من معنى ! فلقد وجدت شبه شاب ، ولم أجد تفسيراً لما حدث سوى سوء تنسيق كنت أنا المسئول عنه وليس سيد الشيخ قاسم أو الإخوة بأمن القسام ؛ فلقد ظنوا أن هناك داعياً أمنياً لما حدث ؛ وخاصة بعد أن شاهد سيد الشيخ وأبو أحمد كيف قمت أنا بالتصريف مع ذلك الشاب عندما أطحت به أرضاً وكبلته ونزعـت منه الحزام النـافـ ، طلبت منهم أن يهتموا به وأن يعيدوا له صحته التي كان قد فقد منها الكثير .

عـدت له بعد يوم واحد وسأـله : " لماذا تـريد أن تـفجر نفسـك ؟ " ، قال : " أنا لـست عمـيلاً ، أـقسم بالله العـظـيم " .

قلت : " أعلم ذلك علم اليقين ، ولكن ما لا أعلم هو سبب إقدامك على أن تكون استشهادياً ، قل لي وادهب إلى سبيل حalk " .

قال: " أنا والدي كان عميلاً في الانتفاضة الأولى" ، قلت : " أعلم ، ولكن والدك قد تاب وحج بيت الله ، وقد توفي منذ أعوام " .

قال: " رغم ذلك فإن سمعته السيئة ما زالت تلاحقنا " ، قلت: " كيف؟ " ، قال : " لقد أنهت أخي الدراسة الجامعية ، ولقد تم خطبتها لأحد زملائها في الجامعة ، ولكن قبل موعد الزواج فسخ ذلك الشاب خطبته وفسخ عقد الزواج وسافر خارج فلسطين إلى الأردن ، ولأنني أكبر إخوتي قررت اللحاق به وسؤاله عن سبب ما قام به ، فأخبرني أنه قام بما فعله لأن أهل القرية كانوا يلومونه على خطبته من ابنة والدي ، والذي الذي كان - رغم توبته وحجه وموته - ما يزال عميلاً في نظر أهل القرية ، ولذلك أريد أن أنفذ عملية استشهادية حتى يقال أن عائلتي هي عائلة الشهيد ، الاستشهادي المقاوم البطل ، اعلم يا أخي أن والدي قد أنجب ست بنات من أمي وبنتين من زوجته الأخرى ، فكيف أستطيع صون عرضي وصون عرض أخواتي إن لم أقم بما أردت القيام به ! " .

قلت : " ألا تعلم أن الله عز وجل يسأل كل من يقتل نفسه عن سبب قتلها ، وأن من قُتل ليقال عنه أنه بطل ؟ فهو قتيل لا شهيد؟ وأن مصيره جهنم وبئس المصير؟! " ، قال : " أعلم ، والله إني أعلم ، ولكن الله غفور رحيم " .

اعذر منه لما لحق به من جراء التحقيق معه ، واعتذر منه لعدم موافقتي على أن

يكون استشهادياً ، ودعته وأوصله الإخوة الى حيث كان يريد ؛ إلى قريته .

مضت عدة أيام لم تطل عن أسبوع ؛ قام خالها ذلك الشاب بشراء مسدس وانطلق إلى المدن الصهيونية بعد أن ترك وصية يقول فيها أنه يقصد وجه الله تعالى بعمله هذا ، فأطلق النار وأصاب عدداً من الصهاينة وقتل ، قُتل أم استشهد ؟ لا أعلم ولن أعلم أبداً ؛ فلا يعلم ما في القلوب سوى رب القلوب ، أما أنا فمجرد مهندس لا أكثر ولا أقل .

عندما كنت أنظر إليه أثناء تسجيل شريط الفيديو وهو يقرأ وصيته التي كتبها هو بنفسه ، فإنه لم يذكر عدداً من الكلمات التي كنت أسمعها ممن سبقوه ليكونوا استشهاديين ، فهو لم يقل كلمة "بإذن الله" ، ولا كلمة "بعون الله" ، ولا حتى كلمة "إن شاء الله" ، لم يقل "بسم الله وعليه أتوكل" ، أو "أنا الشهيد الحي بإذن الله فلان" ، قال : "أنا فلان ابن فلان ابن فلان" ، أما وجهه فلم أر فيه نوراً أو هالةً بل رأيت غضباً وحزناً ! حزناً ؟ ! كيف يحزن وهو ذاهب عند رب العباد ؟ غضباً ؟ ! وكيف يغضب وهو من طلب أن ينفذ تلك العملية وأصر على تنفيذها ؟ !

الاستشهاديون الآخرون كانوا كلهم سعداء فرحين متशوقين للقاء الله ، بل إنني أقسم بالله العظيم أن بعض أولئك الاستشهاديين كان هو من يشد الحزام النافذ حول نفسه ! وكان يطالب بكمية أكبر من المواد الناسفة ! بل إن بعض الاستشهاديين قال - والله يشهد على ذلك - عدد من سوف يقتلهم ويصيبهم ، ولقد صدقوا كلهم دون استثناء .

أحمد الله على أنني لم أرسله ، وأحمد الله على أنه لم يمت أثناء التحقيق معه عند الإخوة ، قلت أنا مجرد مهندس لا أكثر ولا أقل ، فأعني يا الله على أن لا أخطئ ولا أزل .



الشهيد مجد البرغوثي

أظن أنك يا ابنتي الجملة ويا ملاكي الحارس ، قد لاحظت مدى كرهي وسخطي على من يسمون أجهزة الأمن الفلسطينية ، مثل جهاز الأمن الوقائي وجهاز المخابرات العامة ، هذا السخط والكره مرده عدة أسباب :

أهمها ذلك الفساد المالي والنهب الذي مارسه قادة تلك الأجهزة الأمنية والذين كانوا مجرد أناس عاديين ، وأقل من عاديين ؛ فأصبحوا بعد توليهم قيادة تلك الأجهزة أصحاب أموال وعقارات في كل مكان ؛ من دبي مروراً بعمان وصولاً إلى ما وراء البحار ! وبسبب فسادهم المالي أصبحوا ألعوبةً بيد من يدفع لهم أكثر ؛ سواء من كان يدفع من الصهاينة أم من الأميركيان أم البريطانيين أصحاب وعد بلفور المشؤوم .

عندما شكلت جهاز الرصد القسامي بالضفة لمعرفة ما يدور في تلك الأجهزة بعد اعتقالي لدى إحداها في مطلع الانتفاضة ؛ علمت من خلال ذلك الجهاز القسامي الراصد العجب العجاب من أولئك القادة ومحافظي المدن مثل محافظ مدينة رام الله من كانوا يديرون بيوتاً للدعارة ويديرون عصابة للاتجار بالمخدرات والسيارات المسروقة ، بل إن قادة تلك الأجهزة الأمنية كانوا يتزرون العملاء الذين كانوا يعملون في جهاز الشاباك الصهيوني ، ويجبرونهم على دفع مبالغ مالية جراء التغاضي عما كانوا يفعلونه ضد أبناء فلسطين من تحبس

عليهم وأعمال ضدهم ، بل إن هناك من قادة الأجهزة الأمنية الفاسدة من كان يقوم بإسقاط

بعض الشباب الفلسطينيين الوطنيين عن طريق بنات الهوى ، هؤلاء البنات اللواتي كن يعملن ضمن إطار هذه الأجهزة الأمنية ، ولم يكن عملهن سوى استدرج الشباب للوقوع في الرذيلة ثم ابتزازهم وإسقاطهم في شباك العمالة لصالح تلك الأجهزة ولصالح الصهاينة فيما بعد ، أما أكثر ما كان يؤلم فما اكتشفناه عن تلك الأجهزة القدرة وهو استعمالهم لأشد وأقسى أساليب التعذيب ضد أبناء المقاومة وأقاربهم .

ورغم أنني قد أسرت وأصبحت داخل زنزانتي بعيداً عن ساحات وشوارع الضفة والقدس إلا أن المعلومات وبحمد الله ما زالت تصل لي كلما أمكن من رجال الظل القسامي .

لقد وصلني يا ابتي الحبيبة كيف قامت تلك الأجهزة الأمنية الحقيرة بتعذيب عم لك وهو "مجد البرغوثي" داخل جهاز المخابرات العامة تعذيباً جنوبياً لا إنسانياً ، استمر ذلك التعذيب لأيام وأسابيع طويلة .

كنت أنا في داخل زنزانتي أغلي قلقاً على ما كان يجري لمجد البرغوثي هناك في زنازين تحقيق المخابرات ، تلك الزنازين التي كانت داخل مقر جهاز المخابرات العامة الذي لا يبعد سوى أمتار قليلة جداً عن مقر ذلك الحقير العبشي "محمود عباس" ، كان التحقيق يجري بإيعاز منه شخصياً من أجل القضاء على ما تبقى من رجال حركة المقاومة الإسلامية حماس في الضفة الغربية والقدس المحتلة ، وليس بعيداً عن تلك الزنازين كان خالك "عبد الله البرغوثي" يتعرض لأشد صنوف العذاب على يد جهاز الأمن الوقائي بمدينة رام الله ، وكان حوله الكثير من أبناء عائلتي وأبناء حركة المقاومة الإسلامية حماس ممن يعذبون ، ليس لسبب ؛ سوى أنهم

مقاومون ، أو مناصرون لنهج المقاومة .

مرت الأسابيع فصعدت روح عمل الشهيد مجد البرغوثي ابن قرية كوبر ؛ مجد البرغوثي المؤذن بمسجد تلك القرية البرغوثية المقاومة ، استشهد تاركاً أطفاله بلا أب ، وتاركاً القرية ومسجدها بلا مؤذن .

حزنت القرية وتألمت وبكى أطفاله على فراقه وبكى الرجال ، الرجال عندما شاهدوا جثمانه الطاهر قد امتلاً بعلامات التعذيب بالسياط ، وعذاب الكهرباء صعقاً ، فاستشهد .

بعد أشهر طويلة على استشهاد الشهيد مجد البرغوثي ، أطلق سراح خالك عبد الله علي البرغوثي من زنزانة التحقيق عند جهاز الأمن الوقائي ، أطلق سراحه بعد أن شارف على الموت شهيداً تحت سياط التعذيب ، لكن الله قدر له النجاة ، وقدر الخزي والعار لرجال سلطة الفساد والإفساد ؛ سلطة ذلك العبيدي محمود عباس ولصوصه محمد دحلان وجبريل الرجوب وتوفيق الطيراوي .

وهنا يا ابتي الجميلة ويا ملاكي الحارس ؛ اسمحي لي أن أذكر بعض الأبيات والكلمات المتشابكة لعلي أنفاس قليلاً ما بداخل صدري من ألم وحرقة على ما آلت إليه أمور فلسطين في ظل حكم أولئك الطغاة .

مساجد الدار

قرآن ربي وسنة النبي المختار *** أصبحت رماداً فأين الثوار
مستوطن محتل طغى وتجبر *** وسلطة العهر ترى وتتمخت
كلاب العدا بقرانا تدور *** وأشباه رجال تشتري بالدولار
أماتوا الجهد ودمروا المشوار *** باعوا الوطن والدين والثوار
تعاهدوا مع المحتل بل أكثر *** تحولوا السجانين جلادين وأحقرو
يقتلون أبناء جلدتهم فاحذر *** فإن فلسطين براء من أولئك الأشرار
فهم زرع شيطان بقلب الدار *** عملاء احتلال بلا مشاعر
شل عقلي وأصبح بلا تفكير *** فالوضع بات أحضر من الخطير
فالله لما بالقوم لا يغير *** إن عملهم بيدهم لم يتغير
قم يا مؤذن كبر وأعلن الاستنفار *** على المحتل وعلى عميله الأحقير
ألم يحرق مجنونهم المنبر *** ألم يبنوا ويعلو الجدار
وأحاطونا بأسوء حصار *** ألا يكفينا صبراً وانتظار
السنا عباد الواحد القهار *** السنا عباد رب الأبرار
أم أصبحنا خرافاً تنحر *** قل لي بربك باختصار
أين المجاهدون أين الأحرار *** أين رجال فلسطين الانتصار
هل أصبحوا شهداء في القبور *** أم أصبحوا نسيباً بأقبية الأسر

أعلم أن الشمس سوف تشرق ، وأعلم أن ظلم عباس ومن معه لن يدوم وأن مصيرهم لن يكون سوى مزابل التاريخ ، وأعلم أيضاً أنه ليس بعد القدس إلا القدس والقسام .





مريانا أم صفاء؟!

بعد أعوام على مطاردي مع زوجتي وابتي تala وابني أسامة قدر الله أن تحمل زوجتي في تلك الظروف الصعبة ، ففي بداية الانتفاضة كنت أملك المال ، بل أمتلك الكثير والكثير من المال ، ولكن بعد اعتقالي لدى أجهزة أمن السلطة ونهب تلك الأموال ، اضطررت لبيع ما يمكن بيعه من ذهب وسحب ما كانت تملك زوجتي من مال ، لكن الانتفاضة والمقاومة أكبر بكثير من أن يستطيع رجل واحد تلبية ولو جزء بسيط من احتياجاتها .

فلقد وصل سعر الرصاصة الواحدة لثلاثة دولارات ، نعم ثلاثة دولارات ، وصولاً لخمسة دولارات حسب نوع الرصاصة والسلاح ، ولذلك بحسبه بسيطة جداً فإن أي جولة تخوض فيها اشتباكاً مسلحاً ، كنا نطلق عدة مئات من الرصاصات ؛ وهذا يعني آلاف من الدولارات في جولة اشتباك مسلح .

عدا عن شراء الأسلحة التي أصبحت نادرة وأصبحت أسعارها جنونية ، فالضفة الغربية محاصرة ولا مجال لشراء الأسلحة بها سوى من داخل أراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ من تجار السلاح ورجال المafيات ، ومع تقدم أعوام الانتفاضة العام تلو العام كانت الأسعار ترتفع ، ولذلك أصبح أبو علي السلوادي هو من يمول كل تلك النفقات ؛ وأكثر من ذلك فلقد كان هو من يمول كل ما تحتاجه كتائب القسام ويمول احتياجات أسر مقاتلي القسام المطاردين.

خلال تلك الفترة شهدت المقاومة حالة من الاستقرار المادي ومن القوة الكبيرة جداً من خلال شراء كل ما تحتاجه من سلاح وعتاد وسيارات ، ومن استئجار مساكن ومواد للصناعات العسكرية ، لكن بعد تلك الفترة من الاستقرار المادي قامت قوات الاحتلال بشن حملاتها واقتحاماتها ضد البنوك والمصارف المالية ، وضد محاولات الصرافة وتبدل العملة ، واعتقلت كل من يشتبه فيه بأنه من ممولي المقاومة الفلسطينية ، واستولت على الملايين من الأموال ، مما أدى إلى وقوعنا بضائقة مالية أكبر بكثير من السابقة ، وخاصة أنها كانت قد توسعنا كثيراً بعملنا ، ولقد كان هناك التزامات مالية مثل أجور المنازل المستأجرة ومصروف المطاردين ومصروف عائلاتهم المطاردة معهم .

في تلك الظروف قدر الله يا ابنتي أن تولد أختك ؟ فبسبب الاعتقالات الكبيرة أصبحت حركتي صعبة جداً وأصبحت حركة مساعدينا أصعب وأصعب ، فلقد أصبح سيد الشيخ قاسم وأبو أحمد الخطيب مطلوبين أيضاً لقوات العدو ، وأصبحت حركة أبي علي السلوادي مستحيلة في ظل تلك الظروف .

وقدر الله أن تساقط الثلوج بشكل كبير مما أدى إلى إغلاق شوارع مدينة رام الله لعدة أيام مما أتاح لعدد من رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الفرار من أحد المعتقلات المجاورة لمدينة رام الله وهو معقل "عوفر" ، ففرضت قوات الاحتلال منعاً للتجول على المدينة ، وأصبحت مجذرات تلك القوات تتجول في شوارع المدينة على الثلوج التي كانت تكسو تلك الشوارع ، وفي مساء يوم الجمعة ١٣/١/٢٠٠٣م توجب نقل والدتك إلى المستشفى ، لم يكن

بذلك اليوم وبتلك الليلة وفي الظروف التي قد ذكرتها ، سوى أنا وأمك وأنت يا تala وأخوك الرضيع أسامة .

كنت قد أعددت خطة لإدارة عملية ولادة أختك الصغيرة ، لكن الظروف الميدانية منعت تلك الخطة من أن ترى النور ، لكن الله عز وجل كان دوماً مع رجال فلسطين المقاومة ؛ فلسطين أرض الرباط والمرابطين ، وهنا طلبت منك أن تعتنني بأخيك الرضيع ، ورغم أن عمرك في تلك الأيام لم يكن قد تجاوز الثلاثة أعوام ونصف إلا أنه قمت برعايته ورعاية نفسك جيداً !

تركـتـ المـنـزـلـ أـنـاـ وـوـالـدـكـ مـحـاـولـينـ التـوـجـهـ بـالـسـيـارـةـ إـلـىـ أـحـدـ الـمـشـافـيـ الـمـجاـورـةـ وـهـوـ مـشـفـيـ الـهـلـالـ الأـحـمـرـ بـمـدـيـنـةـ الـبـيـرـةـ ،ـ لـكـنـ السـيـارـةـ لـمـ تـمـكـنـ مـنـ السـيرـ فـيـ شـوـارـعـ الـمـدـيـنـةـ الـتـيـ كـانـتـ قـدـ أـغـلـقـتـ بـسـبـبـ الـثـلـوجـ ،ـ وـلـأـنـ جـنـودـ الـاحـتـلـالـ كـانـواـ لـاـ يـتـنـقلـونـ إـلـاـ بـوـاسـطـةـ مـجـنـزـرـاتـ فـلـقـدـ اـسـطـعـتـ أـنـ أـمـيـزـ الـشـوـارـعـ الـتـيـ سـلـكـتـهـاـ تـلـكـ الـمـجـنـزـرـاتـ فـيـ إـطـارـ فـرـضـهـاـ مـنـعـ التـجـولـ وـبـحـثـاـ عـنـ الـفـارـينـ مـنـ رـجـالـ الـجـبـهـ الـشـعـبـيـةـ الـأـبـطـالـ مـنـ مـعـتـقـلـ "ـعـوـفـرـ"ـ ،ـ وـلـأـنـ مـعـتـقـلـ عـوـفـرـ وـمـدـيـنـةـ رـامـ اللهـ وـمـدـيـنـةـ الـبـيـرـةـ مـتـلاـصـقـوـنـ بـشـكـلـ كـبـيرـ ؛ـ فـإـنـ الـمـسـاحـةـ الـتـيـ كـانـتـ مـتـاحـةـ لـلـفـرـارـ كـبـيرـةـ جـداـ مـمـاـ أـدـىـ لـنـجـاحـ تـلـكـ الـعـمـلـيـةـ الـمـمـيـزةـ .ـ

سـيـرـاًـ عـلـىـ الـأـقـدـامـ فـوـقـ الـثـلـوجـ اـجـتـازـتـ زـوـجـتـيـ الـطـرـقـاتـ وـصـوـلـاًـ إـلـىـ الـمـشـفـيـ ،ـ هـنـاكـ وـضـعـتـ اـبـنـيـ "ـمـرـيـاـنـاـ"ـ ؛ـ أـقـصـدـ "ـصـفـاءـ"ـ ،ـ فـلـقـدـ قـمـتـ بـتـسـجـيلـ الـمـوـلـوـدـةـ مـنـ خـلـالـ عـقـدـ زـوـاجـ مـزـوـرـ وـبـطاـقـاتـ لـلـهـوـيـةـ مـزـوـرـةـ أـيـضاـ ،ـ تـفـادـيـاـ لـتـسـرـيـبـ الـخـبـرـ لـلـعـدـوـ الصـهـيـونـيـ مـنـ جـهـةـ وـلـقـوـاتـ الـأـمـنـ الـفـلـسـطـيـنـيـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ .ـ

بعد أن وضَعَتْ أمك المولود ، عدت أدرجي لأطمئن على أطفالي هناك ، وبقيتُ عدة ساعات أتنقل بين المشفى والمنزل ، حتى طلع الصباح وبدأت جرافات بلدية البيرة تحاول فتح الطرق بعد انسحاب مجنزرات العدو ، وهكذا أحضرت سيارتي لنقل زوجتي من المشفى إلى البيت بمجرد أن فتحت الطرق صباحاً ، في تلك الليلة لم يكن في المشفى إلا عدد قليل جداً يُعد على أصابع اليدين الواحدة مما جعل الأمور تسير دون مشاكل داخل المستشفى ، ووالدتك رغم ألمها ؛ فقد ساعدتها ربنا وسهّل أمور ولادتها بحمد الله .

بالمناسبة يا ابنتي ؛ فلقد كان اسم صفاء في تلك الأوراق "مريانا" ولم تكن مسلمة بل كانت نصرانية من بيت لحم ! فلقد كانت تلك إحدى الهويات التي تسترّت بها من المطاردة تلك الفترة ؛ فلقد كنت نصرانياً وكذلك زوجتي وأنت يا تالا وأخوك أسامة ، لم يكن طبعاً اسمك تالا ولا اسم أخيك أسامة ؛ بل كنت "سارة" وكان أخوك "إلياس" !

بعد اعتقالي بقرابة العام تذكرت أن أختك لم تكن تملك شهادة ميلاد باسمها وأسمي وأسم والدتها الحقيقيين ، فكلفت المحامية "بثنية" وقامت مديرية جمعية مانديلا المختصة بشؤون الأسرى بالحصول على بطاقة شهادة ميلاد لمريانا لتصبح صفاء ، صفاء عبد الله البرغوثي .

عندما اعتقلت لم يكن أحد في الدنيا يعلم أنني قد أصبح لدى ثلاثة أطفال ، حزنت والدتي على اعتقالي ؛ ولكن سرعان ما فرحت عندما علمت بالمولودة الجديدة التي كانت تحمل اسمها ؛ اسم والدتي ، ففرحت أمي صفاء البرغوثي لأجل ولادة صفاء عبد الله البرغوثي .

زوجتي التي كانت عضداً وسندأ لي طوال فترة مطاردي لم تكن يوماً عبيأ علي ؛ بل

كانت دافعاً لي لاستمر في مقاومتي بسبب صبرها وإيمانها بما أقوم به ، فبعد أن كانت تعيش حياة ملؤها الرغد وبحبوحة الحال ؛ أصبحت تعيش مطاردةً بلا بيت ثابت ولا مكان هانئ ، فلقد كنا ننتقل خلال تلك الأعوام من مدينة إلى أخرى ومن بيت إلى آخر ، حتى أني لا أكاد أذكر عدد تلك البيوت والأماكن ، عندما ولدت تالا ارتدت أكثر من مئة فستان أول مئة يوم لها في هذه الدنيا وارتدت الحلي الذهبية ، أما صفاء فلم ترتد سوى فستانيين اثنين فقط لا غير بسبب ضيق الحالة المادية ، وبدل أن ترتدي الحلي الذهبية ؛ ارتدت قطعة إسوارة بلاستيكية من المشفى كُتب عليها : " مريانا بنت أنطوان " !



زراعة العقيدة . سيد الشيخ قاسم



زراعة العقيدة أمر صعب جداً ، لكن اقتلاع تلك العقيدة بعد أن زرعت أصعب ألف مرة ، بل يكاد يكون مستحيلاً ، وهنا أقول أن عقيدة أبناء القسام زرعت بالفطرة الطبيعية التي كانت بوصيلتها الإسلام والعزّة ، فلم أر قسامياً واحداً طوال عملي الجهادي لا يقدم نفسه للشهادة ويتقدم للصفوف مثل أولئك القساميين .

طوال سنوات عمل هذا المقاوم معى كان بمثابة الدرع الحامى لي ، فلقد كان يحرص على أمني ويتابع كل الأمور التي قد أسهوا عنها ، كنت محملاً بأمور عديدة متنوعة متشرعة من متابعة أمور المقاومة وعملياتها ؛ إلى تحديد وسائل تلك الخلايا المقاومة ؛ وصولاً للأمور التقنية عبر أجهزة الحاسوب التي كنت أبحر فيها - قرصاناً في الشبكة العنکبوتية- لعلى أجد ما ينفع المقاومة ، وبقدر من المعلومات يسهل اختراقها وأرى ما بداخلها .

أما سيد فقد كان يشاهد كل ذلك بصمت دون أن يسأل أي سؤال ؛ فلم أكن أدرك أن بين يدي معدناً نفيساً لا يقدر بثمن ! كان سيد الشيخ قاسم يعمل في مجال تركيب تمديدات الماء للمنازل ، ولم يكن له أي علاقة بتلك الأمور الإلكترونية والكهربائية التي كنت مشغولاً بها طوال وقت تواجدي ؛ خصوصاً في حالة عدم وجود عمل عسكري أقوم به .

حدث أن احتجت في إحدى العمليات لعدة عشرات من العبوات الناسفة ، فطلبت من

سيد أن يفعل مثلما أفعل ، لم يتردد ؛ بل بدأ على الفور يؤدي ذلك العمل بصورة مذهلة ، فأوقفته عن العمل وسألته كيف تقوم بتلك الأمور من لحام ووصل للقطع وتجميع لها ؟ ! كيف ؟ ! قال : " لقد كنت بجوارك طوال عشرات جلسات التدريب التي كنت تدرس فيها المهندسين والفنين على تلك الأمور ، وكنت أراقب وأشاهد وأقرأ ما كنت قد كتبته في كراسات تلك الدورات وأشاهد الرسوم الهندسية ، وهكذا حفظت الكثير منها ؛ وكنت أشغل برسمنها بشكل تفصيلي ، لأنني كما تعلم كنت الشخص الوحيد الذي كان يُسمح له بالتجول بحرية مطلقة معك ومع المتدربين ، ولقد كنت في بعض الأحيان بعد أن أنهي من التدريب أقوم بإعادة الأدوات التي تدرب عليها المهندسون إلى أماكنها ، وهكذا تعلمت " .

في تلك اللحظة وعندما سمعت ما قاله توقفت عن صناعة ما كان بين يدي من عبوات ناسفة ، وبدأت بإعطائه دورة مكثفة استمرت عدة أيام وليلٍ ، تمكنت خلالها من صقل مهارات أحد أهم الفنين ؛ بل أحد أهم المهندسين القساميين ، فلقد أصبح سيد القاسم بعد فترة التدريب يقوم بإعداد الكثير من العبوات متعددة الأغراض والأشكال !

لقد دربت العشرات من المهندسين الذين كان بعضهم قد أنهى دراسة الماجستير ويعد لدراسة الدكتوراة ؛ ولكن يشهد الله أن سيد الشيخ قاسم فاقهم سرعةً في التعلم وإتقاناً في صنع ما تعلم !

لقد أكمل سيد القاسم من بعدي مشواره على درب مهندس القسام ، فصنع أقوى العمليات تقنيةً ، وأدار أفضل الخطط العسكريةً ، سيد الشيخ قاسم مهندس على الطريق !

وهكذا أقول أن صعوبة التدريب الذي تلقاه طوال تلك الأيام جعلت إدارته للمعركة سهلاً وبسيطةً ، صعب في التدريب سهل في المعركة ، وهكذا زرعت بجوار عقيدة القسام في قلب سيد القاسم علوم هندسة القسام ، فلم يتمكن أحد من اقتلاعها أبداً ، بل قام ابن القسام بزراعته تلك العلوم والعقائد داخل صدور وعقول شباب الإسلام ورجال القسام .





ترس .. وتروس !!

في هذه اللومضة أريد أن أعرض "آلة القسام" ، تلك الآلة التي كانت مليئة بتروس القساميين ، تلك التروس التي تمارس عملها بصمت وثبات واقتدار .

وهنا يا ابتي الحبيبة ويا ملاكي الحراس يجب أن تعلمي أنني عندما قصصت عليك ما حصل من أمور وأحداث جرت خلال مسيرتي الجهادية لست سوى مجرد ترس صغير جداً جداً في تلك الآلة التي تحوي كثيراً من التروس ؛ التروس التي سطرت بعملها المتواصل بجد وصمت أروع صفحات المقاومة على تراب فلسطين ؛ كل فلسطين .

وهنا عندما أعرّج على اسم أحد تلك التروس القسامية ؛ فأنا أعرّج على ما قمت أنا به معه ، لا على ما قام به هو خلال مقاومته للعدو الصهيوني ، فعندما ذكرت المهندس أيمن حلاوة لم أذكر ما قام به بعيداً عنني ، أو ما قام به منفرداً من أعمال مقاومة وأعمال جهادية ، فلقد قام هذا الشهيد المهندس أيمن حلاوة بعدد كبير من تلك الأعمال الجهادية ، بل قام بأحد أهم تلك الأعمال والعمليات وهي عملية "الدولفتاريو" على شاطئ بحر فلسطين المحتلة ؛ تلك العملية التي قُتل خلالها العشرات وأصيب المئات ، عندما فجر الاستشهادي "سعيد الحوتري" نفسه بين الصهاينة عندما كانوا يلعبون ويسلكون في ذلك الملهم الليلي الذي يقع على شاطئ البحر ، بعد أن قام المهندس أيمن حلاوة برسم الخطة وإعداد المادة المتفجرة التي وضعت داخل طبلة عزف عليها الاستشهادي لحنه ، لحن المقاومة .

وما هذا إلا مثل بسيط جداً على تلك الأسماء التي جاء ذكر بعضها خلال كتابتي هذه الأوراق ، تلك الأسماء التي يحتاج كل اسم منها كتاباً ؛ بل كتاباً خاصة لتروي سيرته الجهادية على طريق تحرير فلسطين ؛ كل فلسطين والقدس والأقصى ، ولذلك يجب أن تعلمي أن هناك العشرات بل المئات من مقاومين في آلة القسام الذين قاموا بأضعاف أضعاف ما قمت به ، لكنهم يا ابنتي صامتون ؛ منهم من كتب الله له الشهادة ؛ ومنهم من كتب الله له الأسر ؛ ومنهم ما يزال قابضاً على جمر المقاومة ، يقاوم ويرابط بصمت ، ولذلك آمل منك عندما تكبرين أن تسطري تجارب أولئك المقاومين القساميين في كتب ، لترى النور تلك السيرة الطيبة لأولئك الطيبين ؛ شهداء كانوا أو أسرى أو مقاومين .

شور النار إن خنقت بالحطب *** فكف لا يثور ابن القسام وقد غضب
على دم شعب يسكب *** ويحرق كل من للحق اغتصب
نشر سير أولئك المقاومين هي ثورة لا تقل عن ثورات من يحمل البندقية ويقاوم بها ، فالكلمة الصادقة في هذا الزمان الصعب قد تكون أقوى من الرصاص وأشد تأثيراً من العبوات الناسفة .

واعلمي يا ابنتي أنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل ، ولذلك فأناأشكر كل من علمني حرفأً أو كلمةً ، كل من أمدّني برصاصة لأقاوم بها ، أشكر كل من قاتلت إلى جوارهم ، أشكرهم وأشكرهم وأتشرف لمجرد أنني قابلتهم هناك في ساحات المعركة ، واعلمي يا ملاكي الحارس أننا لا نختار المعارك التي نخوضها، بل المعارك هي من تختارنا .



طي الجراح



اشتدت حملات المداهمة والاعتقال وأصبحت أكثر تركزاً على كل من يعتقد أنه يمت بصلة ما لي ، وخلال عدة أعوام اعتقل العشرات من مهندسي القسام ومن القادة الميدانيين لأولئك القادة والمهندسين ، كان هناك دائماً بديلاً يسارع أبو علي السلوادي إلى إيجاده ؛ وأقوم أنا بالتكلف بإعداده وتدربيه لكي ينخرط في ميدان المعركة .

أما من كان إيجادهم صعباً فهم المساعدون الشخصيون والمرافقون ، فلقد كنت أدير هذه الدائرة بشكل مغلق ، ولقد كان عدد من أولئك الأشخاص أمثال سيد الشيخ قاسم وأبو أحمد الخطيب قد أمضى برفيقي عدة سنوات ؛ ولذلك فلقد كان استبدال أي أحد منهم صعباً للغاية ولكن بسبب ارتباطهم المباشر مع مهندسي القسام والقادة الميدانيين - من أجل التنسيق بيني وبينهم - فقد أصبحوا مطلوبين لقوات الاحتلال بعد أن كانوا يقومون بكل نشاطاتهم السابقة بدون أن يكون الاحتلال قد صنفهم على أنهم من يعملون في مجال المقاومة ، وهكذا أصبح كل عناصر الدائرة الأمنية المحطة بي مطلوبين مطاردين ، فكان لزاماً حمايتهم ومتابعة شؤونهم على أكمل وجه ، ولأن الأحداث كانت متسرعة ؛ فلقد كان مطلوباً مني أن أبدأ بالبحث عن أماكن جديدة للإقامة غير تلك القديمة التي تشكل خطرًا على أمري ، ولأنني كنت آنذاك منشغلًا بزوجتي وأطفالتي الثلاثة فلقد كانت الأمور أكثر صعوبة بسبب اضطراري للخروج كثيراً لتوفير مستلزمات المعيشة من طعام وشراب ؛ وخاصة أن زوجتي قد مرضت بعد ولادتها لابتئ صفاء،

وطلت راقدةً في السرير عدة أسابيع كنت خلالها أرعى أطفالي وأوفر لهم احتياجاتهم اليومية .

في ظل تلك الظروف ؛ وبعد خمسة وثلاثين يوماً من ولادة زوجتي ورقوتها المتواصل على سرير الشفاء ، اضطررت لإيجاد مسكن جديد يكون أكثر ملاءمةً من مسكنني الحالي الذي كنت قد أطلت الإقامة فيه .

خلال عمليات البحث عن شقة سكنية تم رصدي من قبل أحد العمالء وهو صاحب مكتب عقارات وتأجير شقق ، بالطبع لم يتعرف علي من خلال اسمي ولكنه استطاع التعرف علي من خلال ملامحي ومن خلال صورة التقطت لي من إحدى الكاميرات الموجودة داخل مكتبه والتي عرضها هو على جهاز الشباك فتعرفوا على شخصين ، وهكذا تم استدراجي من خلال موعد أتفق عليه لمشاهدة إحدى الشقق وكان ذاك الموعد بجوار بلدية البيرة .

في صباح يوم ٥ / ٣ / ٢٠٠٣ توجهت إلى المشفى صباحاً لمعالجة ابنتي تala التي كان واجباً عليها مراجعة طبيب العيون ، ولأن والدتها كانت هي الأخرى راقدة بفرش المرض ، ولأن كل المرافقين الذي كانوا يعملون معه أصبحوا مطلوبين للعدو ؛ فلقد اضطررت للذهاب بنفسى لمعالجتها .

لم يكن الطبيب المعالج قد حضر في موعده المحدد ، وقيل لي أنه بعيادته التي كانت بإحدى المشافي الخاصة وأنه سوف يحضر خلال ساعة أو أكثر ؛ ولأن هناك موعداً مسبقاً مع صاحب مكتب تأجير الشقق ؛ فلقد اضطررت إلىأخذ ابنتي معي لذلك الموعد على أمل مشاهدة الشقة والعودة ثانياً إلى مشفى العيون.

وما إن وصلت إلى موقف سيارات بلدية البيرة ونزلت من السيارة وعلى يدي ابتي ، حتى هاجمني كلبان بوليسيان ، فقمت بالإسراع بقذف ابتي تالا داخل السيارة وإغلاقها عليها محاولاً التصدى للكلبين اللذين كان أحدهما قد بدأ ينهش قدمي والآخر بدأ ينهش السترة الشتوية التي كنت أرتديها ، قبل أن أتمكن من التخلص من الكلبين البوليسيين كانت مجموعة من قوات الاحتلال تحيط بي مصوبةً بنادق رشاشاتها نحوه ، فألقوني أرضاً وكبلوني وعصبوا عيني واقتادوني إلى سيارة كانت قد توقفت حوالهم أثناء مهاجمتهم لي .

تم اقتيادي إلى معسكر تحقيق ومعتقل عوفر المجاور ، قبل الوصول تم رفع الغطاء عن رأسى مع إبقاء العصبة على وجهي ؛ وما إن توقفت السيارة داخل المعسكر حتى تم إزالة العصبة عن وجهي لأجد نفسي أمام شخص مقنع نظر إلى وهز رأسه ، كان ذلك المقنع هو صاحب مكتب تأجير الشقق ، لقد عرفته ؛ فلقد كان قصيراً سميناً يرتدي حذاءً ذا كعب عالي نوعاً ما ، ثوانٍ معدودة تلك التي لزمته للتعرف علي قبل أن يهز رأسه المقنع ؛ وثوانٍ هي أيضاً تلك التي لزمتني لأقرر رغم أنني مكبل مقيد أن أقوم بإعدامه .

لقد أقسمت أن أول عمل سوف أقوم به هو إعدام ذلك الحقير العميل ، لم تكن عندي مشكلة بإعدامه ، دائماً كانت المشكلة تكمن بالطريقة التي سوف أعدمه بها ، فما لا تعلمينه يا ابتي هو أنني على مدار أعوام من المقاومة قمت بإعدام عدد من العملاء ؛ كنت أقوم بإعدامهم بالطريقة التي تتناسب مع جريمتهم التي ارتكبوها ، فمن تسبب بسقوط قذيفة أدت إلى استشهاد مقاوم ؛ كنت أحول جسده إلى أشلاء بعد إلقائه داخل حفرة تكون قد لغمت بالمواد الناسفة ،

فلا يعقل أنه بعد أن تسبب ذلك العميل بتحويل جسد أحد المقاومين إلى أشلاء جراء إحدى قذائف العدو التي وجهت بناء على معلومات ذلك العميل أن لا أقوم أنا بعد ثبات التهمة عليه بتحويل جسده إلى أشلاء ، فالعين بالعين والسن بالسن ؛ والبادئ أظلم ، وأنا لست ممن يعفون عن العملاء الظالمين .

أما العملاء الذين كانوا يتعاونون مع المحتل دون أن يؤدي تعاونهم وخانتهم إلى استشهاد أحد من أبناء المقاومة فلم أقسم بقتلهم ؛ بل بفضحهم وكشفهم وتحويل حياتهم في الضفة والقدس إلى جحيم ، مما كان يدفعهم إلى الفرار إلى أحضان العدو ؛ إلى مدينة داخل أراضينا المحتلة عام ١٩٤٨ م .

لم أطرق بإسهاب لموضوع العملاء لأنه موضوع أمقته جداً ولا أحبه ، و كنت غالباً مرغماً على التعاطي مع قضياتهم القدرة بحق أبناء المقاومة وأبناء فلسطين ، فالعملاء هم أقدر ظاهرة عرفتها فلسطين جراء الاحتلال الصهيوني ؛ سواء عملاء المباشرين أو عملاء بالوكالة ؛ قادة أجهزة أمن السلطة الذين كانوا يعلقون أوسمة العمالة متفاخرين بها راقصين على دماء شهداء فلسطين ، قبل أن أعود لما قد حصل معى سوف أعرّج قليلاً لما حدث معك بعد أن أقيتكم داخل السيارة وأغلقت الباب عليك .

وما إن تم اقتيادي بعيداً عنك حتى تم فتح السيارة والإلقاء بك أرضاً في موقف سيارات بلدية البيرة ؛ وقاموا بأخذ سيارتي معهم ظناً منهم أن سيارتي تحتوي على ما يمكن أن يفيدهم بخصوص قضيتي .

قيل لي بعد فترة من اعتقالي عبر أحد المحامين الذين كانوا يتبعون قضيتي من الناحية القضائية أنه بعد أن ألقى جنود الاحتلال بك أرضاً جاء عدد من موظفي البلدية الذين شاهدوا عملية مداهمة قوات الاحتلال لي واعتقلني ؛ فقاموا بأخذك محاولين التعرف على شخصيتك وهو يوتيك ، وعندما سأله قلت لهم أن اسمك "لينا أشرف" وأنك من مدينة نابلس ، فلقد كان هذا هو آخر اسم قد أطلقته عليك بعد اسمك السابق الذي كان "سارة" .

لم يتمكنوا من تحديد هويتك بأي شكل من الأشكال ، لأنه لم يكن أحد قد شعر بغيابك أو افتقدك ؛ فأنا معتقل وأملك مريضه ترقد على سرير الشفاء ، و كنت قد تركتها نائمة هي وأخوك أسامة وصفاء عندما تركنا المنزل صباحاً .

وهكذا بقيت يا ابنتي حتى ما بعد ساعات المساء دون أن يتم التعرف على هويتك ، فلم يكن عمرك قد تجاوز الأعوام الأربعية بعد ، ولأنك أمضيت ما يزيد عن نصف تلك الأعوام الأربعية متنقلةً من مسكن لآخر ومن مدينة لأخرى فلقد جعلت كل من يحاول سؤالك عن أي معلومة سواء بالاسم أو مكان الإقامة يدخل بمتاهة لا يمكنه الخروج منها بأي نتيجة .

بدأت المحطات الفضائية والتلفزيونية بنقل ما حدث ونقل صورك في تقاريرها الإخبارية ، ولحسن حظك فلقد تعرفت عليك جدتك رغم أنها لم ترك منذ عامين وأكثر ؛ إلا أنها عرفتك وصاحت بأخوالك : "هذه تالا ، اذهبوا للمدينة وأحضروها فوراً ، هذه حفيدتي" .

وصل أخوالك بعد منتصف الليل إلى مدينة رام الله حيث كنت قد نقلت إلى هناك ؛ إلى أحد منازل أبناء العائلة الذي أخذك من بلدية البيرة بناء على طلب أخوالك منه ، ثم تم نقلك إلى

القرية إلى أحضان جدتك ، وطبعاً لم تفلح جدتك وأخوالي بالحصول على أي معلومة منك سوى وصفك لما جرى معه من اعتقال وكلا布 وكلاب وكلاب .

كانت زوجتي متغيرة على غيابي لساعات طويلة عن البيت ؛ إلا أن هذا الغياب يكون عادة غيابي أنا وحدي وليس غيابي مع أي أحد من أطفالي ، قلقت وانتظرت ، فلقد كانت تعلم أن عليها الانتظار في حالة غيابي المفاجئ لمدة أربع وعشرين ساعة قبل أن تعود إلى القرية ، ولأن قلقها قد زاد ، قامت بتشغيل جهاز التلفاز متابعة نشرات الأخبار حيث علمت عن اعتقالي وأسرى لدى قوات العدو الصهيوني .

انتظرت حتى صباح اليوم التالي وعادت إلى القرية مع ما بقي معها من أبنائي وهم أسامة والرضيعة صفاء ؛ صفاء التي كان عمرها يوم اعتقالي خمسة وثلاثين يوماً ، ما إن وصلت زوجتي القرية حتى داهمت قوات الاحتلال القرية ، ومنزل عمي والد زوجتي ، واعتقلوا كل من كان هناك ، وتعرضت زوجتي للتحقيق المستمر ؛ لكنهم لم يتمكنوا من معرفة أي شيء منها ولم يحصلوا على أي معلومة مفيدة ، فزوجتي لم تكن تعلم أصلاً عن أي عمل من الأعمال التي كنت أقوم بها ، فلقد كانت مهتمة برعاية الأطفال طوال مدة وجودها مطاردة عندي ، ولم تكن قد شاهدت طوال تلك المدة وجه أحد من مساعدتي نساء كانوا أو رجالاً !

ولذلك بعد انتهاء التحقيق معها تم إطلاق سراحها ، وهكذا عاد اسم تala لتala ، ولم تقنع هي بهذا الاسم وتسلّم به إلا بعد عدة شهور من تكرار مناداتهم عليها بهذا الاسم ، ورغم مرور أعوام على عودة اسمها الحقيقي لها إلا أنها تفضل اسم "لولو" ؛ وهو اسم الدلع الذي كنت

أناديهما به عندما كان اسمها "لينا" ، وظل اسم لولو اسماً رديفاً لا اسمها حتى اليوم .

أما جميلة الجميلات صفاء فلقد ولدت تحت اسم "مريانا" فلقد أصبح اسمها صفاء ، واعتادت عليه منذ عودتها إلى قرية بيت ريمها ، أما أسامة أو إلياس أو خميس ، فقد استرجع هو الآخر اسمه بشكل أسرع من تala ؛ لأنه كان لا يزال صغيراً ولأننا كنا نناديه داخل المنزل باسم الغصنفر ، فلقد بقي الغصنفر لقباً له حتى يومنا هذا وأسامة اسماً له .



وبالعودة لما جرى معه بعد اعتقاله ، اعتقلالي الذي عبرت عنه بعده جمل متشابكة ، فقلت واصفاً حالي الجسدية والنفسية في ذلك اليوم الأول الذي تواصل ليصبح سلسلةً من الأيام التي توالت على مدار ستة أشهر من التحقيق المتواصل ، بيوم بدأ ولم ينته إلا بانتهاء الأشهر الستة أو المئة وثمانين يوماً التي جمعت لتصبح يوماً ؛ يوماً واحداً .

قلت في ذلك اليوم :

مكبل اليدين والقدمين معلق *** لسقف الزنزانة من المرفق
فيجر رصاص بلا شمس شرق *** وبلا أمل وعون شرق
احتلال تجبر وقلب المنطق *** سؤال واستجواب ثم تحقيق
جسدي يتآلم وسياطهم كالحريق *** عظام تكسر وعظام تسحق
بحري هائج وفكري غريق *** قلبي يتآلم وأشعر بالضيق
أسرت وعدبت ولم يسقط البيدق *** وصعدت روحني من شدة الألم للخالق
لا ؛ روحني لم تصعد للسماء *** لم أستشهد وما زلت بالمحقق أحملق
نعم، لم أستشهد ؛ ولكنني كنت بين الوعي واللاوعي ، أصارع ألم جسدي لكي لا تكسر
إرادتي ولكي لا يتدمي ما قمت به طوال عدة أعوام في صفوف المقاومة من بنيان مع رجال
المقاومة ؛ رجال القسام .

كنت أدرك أن مثل هذه اللحظة قد تأتي ، فلم يكن أمام من يقاوم الاحتلال سوى الشهادة
أو الاعتقال أو النصر ، النصر كان صعباً لظروف عديدة لا داعي للتطرق لها ولا لأسبابها ؛ تلك

الأسباب التي جرت على أهل فلسطين النكسة والنكبة وأوسلو والكثير غيرها ، ولذلك فلقد كنت مستعداً للشهادة عبر إخلاص النية لله وحده ؛ لله عز وجل ، فالمقاومة لم تكن لا لسلطة ولا لجاه ؛ بل كانت لله ؛ رب العزة ؛ رب فلسطين ، الذي كتب علينا الجهاد طريقاً لتحرير المقدسات .

أما الاعتقال فقد كنت مستعداً له من عدة نواحٍ وبطرق مختلفة كان أولاً جسدياً ، فرغم انشغالي طوال الأعوام الماضية بأعمال المقاومة إلا أنني كنت ما أزال أحافظ على لياقتي البدنية، فقد واصلت تدريبي وتقوية عضلاتي لاستعمالها في خوضي المعارك المسلحة ، أو في خوض معركة كسر الإرادة في زنازين التحقيق ، سواء كانت تلك الزنازين لدى الصهاينة أو لدى أعوانهم من أجهزة أمن السلطة .

أما من الناحية الأمنية ؛ فقد كانت استعداداتي تنقسم إلى قسمين :

أولاً : تلك الخبرة الكبيرة والمعرفة التي تعلمتها من أبي علي السلوادي وسيد القاسم وأيمان حلاوة وغيرهم من رجال القسام الذين كانوا قد مرروا بتجارب اعتقال سابقة ومتكررة على مدى الأعوام السابقة ، فمن خلال تجاربهم الاعتقالية تمكنت معهم من وضع تصور لما سوف يحدث مع أي أحد من المقاومين إذا ما تم أسره ، ولذلك قمنا بإعداد كراسة يشرح بها الإخوة أبو علي السلوادي وسيد القاسم وأيمان حلاوة كيفية إدارة المعركة الاعتقالية ، وهكذا ورغم عدم اعتقالي لدى الصهاينة من قبل ؛ إلا أنني كنت أحمل في عقلي تصوراً كاملاً لما سوف ألاقيه عندهم ولكيفية ردود فعلني على ما سأواجهه به هناك في أقبية التحقيق .

ثانيها : ولقد كان من نوع آخر فضلت أن أقوم به لأسباب تطورت وتعددت ، فلقد كنت على مدى أعوام أقوم بجمع كل المعلومات التي قد يكون أدلى بها بعض المعتقلين الذين تربطهم بي علاقة عمل جهادي من خلال معلومات حصلت عليها بعد أن أنهوا التحقيق وتم وضعهم داخل السجون ، أو من خلال المعلومات التي حصلت عليها عبر المحامين الذين كانوا يملكون لوائح الاعتراف ولوائح الاتهام التي قدمت إلى المحاكم الصهيونية ، وبذلك كنت وبنسبة تجاوزت التسعين بالمائة أعلم ما تم تداوله عنني تحديداً ، وأعلم التهم التي سوف توجه إلى ، تلك التهم لم تعنني أبداً ؛ فأنا مهندس مقاوم .

أما ما كان يهمني ويعنني فهو عدم كسر "حوار الصمت" بما يخص العمل الكلي لكتائب الشهيد عز الدين القسام ، وبما يخص خطتها المستقبلية وأهدافها ؛ أو مخازن السلاح والذخيرة ومستودعات المواد المتفجرة ، ذلك ما كان يعنيني أولاً .

أما ثانياً : فهم المقاومون الذين عملوا معى ولم تكن هوياتهم قد كشفت لدى قوات العدو ، تلك الهويات التي أقسمت برب العزة على أن أستشهد قبل البوح بها وقبل تمكين العدو من أولئك القساميين ؛ أمراء الظل ، أو أنتمكن العدو من الحصول على رصاصة واحدة من رصاصات القسام .

على هذه الأرضية التي بنيت عليها إستراتيجتي توكلت على الله ، أما الصهاينة فقد أوكلوا أمرهم إلى الشيطان وبنوها على أرضية ما يُعرف باسم "التحقيق العسكري" ، التحقيق العسكري هو التحقيق الذي يمارس به الصهاينة كل الأساليب اللاإنسانية من أجل انتزاع

المعلومات من المعتقل ، طوال شهرين من التحقيق معه بمدينة القدس بمركز التحقيق في سجن المسكونية ، كسر ما كسر من عظامي ووصلت حالة جسدي إلى حافة الانهيار ، لكن الله عز وجل أعلى وأقوى ، الله رب القدس حيث كنت أعذب في تلك الأقبية المظلمة على يد طغاة الزمان ومدعني المكان ، مدعني بيته المقدس ومدعني أجساد الأسرى والمعتقلين .

ما أن انقضى الشهراً حتى تم اصطحابي إلى مركز تحقيق آخر لا اسم له ولا عنوان على الخارطة ، مركز يصطلح على تسميته بالمركز "السري الخاص" ، سري وخاص !

فعلاً هناك بدأت جولة جديدة استمرت عدة أشهر كنت خلالها ميتاً يحمل بقایا أنفاس ، أنفاس أجرأها الله في جسدي حارماً إياي من الشهادة التي كنت أطمع بها ، فالشهادة كانت هدفي وغايتها التي كنت أسعى إلى الوصول إليها عبر تحدي أولئك الصهاينة البربرة ، لم أستشهد وأخذت على نقالة إلى زنزانة بسجن في القدس مرة أخرى ، هناك في القدس عدت أشلاء إنسان ، محمولاً على نقالة لا ينقصها سوى كيس أسود من تلك الأكياس التي توضع الجثث داخلها !

أُلقيت في تلك الزنزانة نحو أسبوعين أو أكثر ، ثم تم نقلني مرة أخرى إلى شمال فلسطين ؛ إلى معتقل "مجدو" ، هناك وصلت ففكوا الرباط عن عيني ثم وضعوني بلا قيد في أحد الأقسام ، هناك للمرة الأولى منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر ونصف ، رأيت الشمس للمرة الأولى ، وأيضاً رأيت أناساً غير المحقدين الصهاينة ، لكن أولئك الناس كانوا ذئاباً بأجسام بشر .

ما إن وصلت إلى ذلك المعتقل وإلى ذلك القسم الذي أُعد خصيصاً لي ولاستقبالي ،

حتى وجدتهم يصلون فتوضأت وأسرعت لأقف خلفهم لأصلي ، لأصلي ولم أصلّ ، لم أصلّ
بنية الجماعة بل صلิต بنية الفرد ، رغم أن إمامهم كان طويلاً اللحية وكبيراً في العمر ؛ إلا أنني
لم أرتاح له ؛ لأنني عندما دخلت لأصلي لمحت عينه ترقبني أثناء توجهي من الباب لأقف في
آخر صف ، فلقد كان باب خيمة الصلاة يقع على يمين الصف المقابل وهو يمين الخيمة ، لم
أرتاح لنظراته ولا لطريقة أدائه الصلاة ، فلقد كان هو و من معه من المصليين مثل العازفين بجوقة
موسيقية مدربة أحسن تدريب ؛ لم يكن بينهم أحد نشاز ؛ كانوا مثل الرجال الآلين ، ذئاب
بأجساد رجال ، ورجال أشباه آلات تتحرك بتنااغم مستفز !

ما أن انتهيت من الصلاة حتى كان العديد منهم قد مر من أمامي متوجهاً إلى باب الخيمة
للخروج ، بقي إمامهم الأكبر مع اثنين من "مرتدي" اللحى ، تلك اللحى التي حاولوا من خلاها
إخفاء حقيقة هويتهم عنى ، فسلموا علي ما أن انتهيت من الصلاة وعرفوني بأنفسهم على أنهم
فلسطينيون من مناطق فلسطين المختلفة وعلى أنهم مقاومون وثائرون .

قدموا لي الطعام ، الكثير الكثير من الطعام والحلب ، وهكذا مضى اليوم الأول ؛ صلاة
بنية الفرد وطعام عن مئة فرد .

في اليوم الثاني قدم لي إمامهم الأكبر حقيبة مدعياً أنها قد وصلت من الشيخ "جمال أبو
الهيجاء" أمر المقاومة القسامية بمدينة جنين ، وقد كان الشيخ جمال أبو الهيجاء قد اعتقل منذ
نحو عام ، مالم يكن يعلم إمامهم الأكبر الذي قدم لي الحقيبة على أنها من الشيخ جمال هو أني
كنت أعلم أن الشيخ موجود في سجن آخر أكثر حراسة ، سجن مبني من الإسمنت والحديد ،

وليس هنا بسجن الخيام ؛ لأن الصهاينة كانوا لا يضعون في سجن الخيام "مجدو" أو سجن خيام "عوفر" إلا من أتوا حكمهم واقترب موعد إطلاق سراحهم ، فكيف يكون أبو الهيجاء معتقلًا في مجدو ؟ وكيف أصلًا يتم إحضاره ؟ إحضار عبد الله البرغوثي الذي توجّه له تهم لا تعد ولا تحصى إلى سجن ضعيف الحراسة وأشبه ما يكون بالمتزه المليء بالخيام ؟ !

فتحت الحقيقة فوجدت بها رسالة من جمال أبو الهيجاء ، كان الشيخ كما يدعى قد كتبها لي ، كتب بها كلمات للاطمئنان على أحواله ووضع في نهايتها عدداً من أرقام الهواتف التي تخص قيادات سياسية مثل الأخ خالد مشعل ، والأخ عبد العزيز الرنتسي وغيرهما ، أسماء كثيرة وأرقام أكثر ! لكن لم يكن بين تلك الأسماء والأرقام رقم من أرسل إلى الحقيقة ؛ رقم الشيخ جمال أبو الهيجاء ! ولم أسأل أحداً عن رقمه حتى لا يشكوا أنني قد أصبحت أشك بهم .

ظللت عدة أيام على حالٍ أصلي منفرداً وأنا خلف إمامتهم دون أن أثير شكوكه ودون أن يدرِّي أو يعلم ، وكنت أنام كثيراً بسبب التعب الذي كان قد لحق بي خلال جولتي بالتحقيق في المسكونية بالقدس وبالمركز السري ، وكانت أتناول الطعام والشراب كلما تمكنت .

كان هناك صوت يواصل تذكيري أنني سوف أخوض جولة ثالثة من التحقيق ؛ فلا يمكن أن يكون الصهاينة قد استسلموا بهذه السهولة ، فهم لم يتبعوا رغم أنهم سهروا الليالي في جلسات التحقيق ؛ إلا أنه كان يتم تغيير طاقم المحققين بين الحين والآخر ، أما أنا فلم يتم تغييري طوال تلك الأشهر .

مضت عدة أيام أطّلتها قد تجاوزت الأسبوع ، أتى بعدها إمامهم الأكبر ليسألني إن كان قد

فرغ شحن بطاريات الهواتف النقالة التي معني ؛ تلك التي أرسل منها جمال أبو الهيجاء اثنين وليس واحداً ، أحدهما موصول عبر شبكة الاتصال الفلسطينية وهو للاستعمال داخل فلسطين كما كُتب لي ، والهواتف الآخر مشبوك عبر أحد شركات الاتصال الصهيونية وهو للاستعمال الخارجي ، فقلت لا أدرى إذا ما كانت البطاريات قد فرغت أم لا لأنني لم أستعمل تلك الأجهزة أصلاً ، وقبل أن يسأل عن السبب قلت له أني كنت قد نسيت وجودها أصلاً بسبب تشوش أفكاري وتعب جسدي ، أما الحقيقة فلقد كانت أني أحاول أن أكسب أكبر وقت ممكن في هذا المكان ؛ لعلي أسترجع بعضاً من قوتي الجسدية لجولة تحقيق شعرت بأنها قادمة لا محالة .

في أحد أركان إحدى الخيام جلست لكي أجري أول مكالمة لي بمجرد أن تركني إمامهم وذهب لحاله ، اتصلت بزوجتي فردت علي ؛ قلت لها : " لا وقت عندي ، قد يتنهي شحن البطارية ، فلا تتحدثي واتركيني أتحدث أنا " ، فطمأنتها على أحوالى وحاولت إراحة نفسيتها جراء فراقى ووقوعي في الأسر ، طلبت منها أن تعطيني ابنتي تala ؛ تala ملاكي الحارس ؛ وبدأت بالتحدث معها ، كانت تسألني باستمرار عن مكان وجودي ؛ فكنت أرد عليها : "أنا عند أصحابك وأصدقائك" ، فكان من حوالها يطلبون منها إعادة السؤال عن مكان وجودي ، فكنت أكرر : "أنا عند أصحابك ؛ أصحابك الحلوين" ، وأقفلت السماعة مودعاً .



أصحاب تala "الحلوين"



كانت تala تملك عصافير عصافورين من العصافير المغredة ، بقيت محفوظة بها طوال أعوام وجودها مطاردة معي ، وعندما كان أحد تلك العصافير يموت ، كنت على الفور أقوم بشراء عصافورين آخرين جديدين وإعادة العصافور الحي الذي بقي وحيداً لصاحب محل بيع الطيور.

وهكذا وطوال أعوام كانت تala لا صديق لها إلا عصافيرها المغredة التي كانت تقوم بإطعامها كل يوم ، ما أن أنهت تala مكالمتها معى حتى ذهبت إلى قفص العصافير لتبث عنى بداخله ، فلقد قلت لها أني عند أصحابها "الحلوين" جالس بداخل القفص وأتناول طعامي ، ولأن غالبية أفراد أسرتي هم أسرى سابقون فلقد انتبهوا المعنى ما قلته لتala وعلموا أني موجود في قسم العملاء والجواسيس ؛ ذلك القسم الذي يطلق عليه فلسطينياً اسم "العصافير" ، أو غرف العار .

بعد ذلك تحدثت مع والدتي ووالدي بعمان مكالمة طويلة محاولاً طمأنتهم علي وعلى أحوالى ، ولم أعاود استعمال الهواتف النقالة مرة أخرى طوال الأيام التالية ، خوفاً من أن يخطئ أو يزد أحد من أبناء عائلتي بأي كلمة أو معلومة فتضرس هذه الكلمات إخوتي بالمقاومة ، ما أن اكتمل الأسبوع الثاني ؛ حتى تم إخباري من قبل إمامهم الأكبر أنني سوف أُنقل إلى قسم آخر .

عند أولئك العملاء وطوال تلك الفترة قُدِّم لي أفضل الطعام ولم يسألني أي أحد عن أي شيء ، فلقد كان المطلوب منهم توفير وسائل الراحة لي ، وجعلني أتحدث عبر الهاتف ظنًا منهم أنهم سيمكنون من تعقب تلك الكلمات فيصلوا إلى شيء ما ضد المقاومة ورجاها .

ارتديت حذائي ، وأعطيت الحقيقة وما بداخلها إلى إمامهم وكبير جواسيسهم ، وغادرت ذلك القسم متوجهاً إلى الباب الخارجي ، هناك كان يتضرني عدد من جنود قوات الاحتلال الذين قاموا بتقييد يدي وقدمي ثم وضعوا عصبة على عيني واقتادوني إلى عربة انطلقت مسرعةً إلى مدينة القدس ، إلى مركز تحقيق المسكونية .

هناك بدأت معى جولة جديدة من التحقيق لم تختلف عن الجولات السابقة ، إلا أنني تعرضت في أول يوم لتلك الجولة إلى كسر في ذراعي ، كان الدافع الذي يحرك الصهاينة ويدفعهم لفقد أعصابهم مرده أن رجال كتائب الشهيد عز الدين القسام وعلى رأسهم أبو علي السلوادي وسيد القاسم قاموا بعدة هجمات على قوات الكيان الصهيوني الغاصب عقاباً لجرائمهم التي لم تكن تتوقف أبداً ضد كل فلسطيني ؛ مدنياً كان أم عسكرياً ؛ مقاوِماً كان أم مسالماً ، مما جعل قادة الشاباك الصهيوني تصاب بهستيريا عمياً أرادت من خلالها كسر إرادتي وجعلني أنهارُ كاشفاً أسرار المقاومة وخباياها .

في تلك الفترة ومن شدة العذاب ؛ أقسم أنني شاهدت الموت وتحدثت معه وجهاً لوجه ، لامسته وعرفته عن قرب ، صادقت الموت وصادقني مشفقاً علي مما حل بي من عذاب ، قدر الله لي أن لا أستشهد ، وقدر الله لملك الموت ألا يقبض روحي .

بعد مضي شهرين على هذا الحال وتلك الليالي الطويلة ؛ كان قد مضى على وجودي في الأسر وداخل أقبية التحقيق قربة ستة أشهر وعدة أيام ، تم اقتيادي بعدها من مدينة القدس الحبيبة إلى صحراء فلسطين الأسيرة ؛ إلى صحراء النقب ؛ إلى سجن بئر السبع ، هناك وصلت مودعاً القدس ، مودعاً إياها والكلمات تدور داخل رأسي دون أن تتمكن شفاهي من النطق بها من شدة التعب وألم الجسد ؛ فقلت مودعاً مناجياً القدس الحبيبة وأسوارها الشامخة وظلال أسوارها ؛ أسوار البراق ؛ وأسوار الأسر ، قلت :

يا ظلال القدس قومي وناجني *** أسوارك باتت صامتة لا تحاكيني
غاضبة مني لأنني من الأسرى المساجين *** أم لأنني لم أستشهد مع المجاهدين
بربك كبري وعلى الأذان *** ولا تخضعي للظلم والاستبداد والطغيان
حزين أنا لأجلك يا مدينة الرضوان *** يا مدينة المحبة والعفو والغفران
أليست درة تاج الأرض وفلسطين *** وأسوارك معراج سيد المرسلين
ألم يستشهد لأجلك الاستشهاديون *** ألم يضحوا بالروح والغالي والثمين
فلماذا أنت صامتة وأنا حزين *** فالنصر قادم بإذن رب العالمين
فكـلـ مـحتـلـ لـأـرـضـكـ لـتـرـابـكـ فـانـ *** وـسـوـفـ تـبـقـيـ شـامـخـةـ بلاـ هـوـانـ
فـأـنـتـ مـدـيـنـةـ العـدـلـ وـالـمـيـزـانـ *** وـأـنـتـ جـوـهـرـةـ الدـرـ الـمـكـنـونـ
فـتـرـابـ الـقـدـسـ لـيـسـ مـجـرـدـ طـيـنـ *** فـالـقـدـسـ مـبـارـكـةـ وـمـاـ حـوـلـهـ بـالـقـرـآنـ
فـأـنـتـ أـوـلـ قـبـلـةـ الـمـؤـمـنـيـنـ الـمـصـلـيـنـ *** وـأـنـتـ يـاـ قـدـسـ ثـانـيـ الـحـرـمـيـنـ الـشـرـيفـيـنـ
يـاـ ظـلـالـ الـقـدـسـ يـاـ جـنـةـ الـجـنـانـ *** أـسـمـعـيـنـيـ صـوـتـكـ وـأـسـمـعـيـنـيـ الـأـذـانـ

فالنصر قادم والعدو المحتل فان *** فقلوب رجال القسام مليئة بالإيمان
يا ظلال القدس أسمعني الأذان *** يا ظلال القدس أسمعني الأذان
فأنا الأسير الشهيد الوهان *** لسماع صوتك من خلف القضبان
أنا من لا يبيع ولا يهادن *** أنا من بدين رب القدس دان
أنا من بدين رب القدس دان *** يا ظلال القدس أسمعني الأذان



وصلت إلى سجن بئر السبع وتم وضعني في قسم العزل الانفرادي ، كان قسماً يحتوي على عشر غرف يسكن في كل واحدة منها أسير أمني أو سجين مدني ، هناك في تلك الغرف المعزولة عن باقي أقسام السجن ؛ كان يوجد شيخي ووالدي الغالي عليًّا وعلى قلبي الشيخ جمال أبو الهيجاء ، وكان بإحدى الغرف الأخرى يقع صديقي العزيز أسدُ مقاومي بيت لحم أحمد المغربي وحيداً ، وعدد آخر من ضمنهم مروان البرغوثي أمين سر حركة فتح والذي كان قد مد لي يد العون عند خروجي من معتقل جهاز الأمن الوقائي في الضفة الغربية ، مد لي يد العون رغم صعوبة وضعه لكونه كان مطارداً مطلوباً من قوات الاحتلال .

بعد عدة شهور أمضيتها بين أولئك الأسرى المقاومين الأبطال ، تم اقتيادي للتحقيق مرة أخرى ، هذه المرة لم يكن السبب يدور حول نشاط كتائب القسام ؛ بل يدور حول اختفاء عميلهم الذي أرشدهم إلي ؛ صاحب مكتب تأجير الشقق ، مكثت في التحقيق أسبوعاً واحداً لا أكثر ولا أقل ، ولكنني لم أعد للقسم الذي كان فيه إخوتي المقاومون ، بل تم وضعني بقسم خاص لا يحتوي إلا على غرفة واحدة فقط لا غير ؛ اسمه "قسم الحراسة المغلقة" ، غرفة يوجد داخلها عدة كاميرات مراقبة ، تراقب كل حركة أقوم بها وكل نفس أتنفسه ، مكثت في تلك الغرفة عاماً وثمانية أشهر لم أر خلاها أي مخلوق سوى ضابط صهيوني واحد وثلاثة جنود كانوا هم المكلفين بحراستي ومتابعة أموري .

كنت عندما اعتقلت قد قررت أن أقتل ذلك العميل ولكنني كنت حائراً حول طريقة قتله ، لكنني خلال أشهر الست في داخل أقبية التحقيق توصلت لأفضل طريقة ممكنة لعقابه وأجعل

من موته عبرةً ودرساً لكل من تسول له نفسه أن يتعاون مع العدو وبيع شرفه ودينه ، ذلك العميل كان يقيم بالضفة الغربية تحت ستار أنه صاحب لمحل ومكتب تأجير العقارات ؛ فلقد كان من أبناء منطقة أخرى ومدينة أخرى لن ذكرها ، أما طريقة موته فسوف ذكرها .

فبعد التحقيق معه بمجرد أنني قمت بإرسال اسمه لإخوتي رجال القسام ، اتضح أن له دوراً في تصفية اثنين من أبناء أحد التنظيمات الفلسطينية بمدينة رام الله ، وما إن أكمل الإخوة تحقيقهم معه حتى أرسلوا لي وأنا في سجنني نتيجة ذلك التحقيق متظرين ما سوف أصدره من حكم على ذلك العميل الذي سلمني لقوات العدو من جهة والذي أدت عمالته لاستشهاد عدد من الشوار .

طلبت من الإخوة أن يبحثوا عن أحد مواقع البناء الجديدة التي تقرر إنشاء مجمع أو بناية ضخمة عليها ، فوجدوا المكان ، وهناك تم دفن العميل حياً تحت الإسمنت الذي بُنيَت عليه أساسات ذلك البناء ، كم أكره العملاء ! وكم أرحب بحرقهم جميعاً حتى أطهّر المجتمع الفلسطيني منهم !

ما إن مر العام والأشهر الثمانية حتى عدت إلى نفس القسم الذي كان فيه الإخوة المقاومون والثائرون ، لكنني لم أجد أي أحد منهم ؛ فلقد انتقل بعضهم إلى أقسام السجن العادية وتم نقل الآخرين إلى أقسام للعزل في سجون أخرى ، في ذلك القسم وجدت تسعه مجانيين ؛ مجانيين بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، كانوا طوال الليل لا يكفون عن الصراخ وعن سكب الماء خارج غرفهم ، مكثت على هذا الحال نحو عام أو يزيد قليلاً ، بعدها بدأ عدد أولئك

المجانين التسعة يتناقص شيئاً فشيئاً ؛ ويحل محل كل من يغادر منهم أحدٌ من الإخوة المقاومين .

كان أول الوافدين "أحمد المغربي" صديقي العزيز وابن أمير مدينة بيت لحم ، ثم "حسن سلامة" ، ثم وصل عدد آخر من الإخوة الأسرى الأمنيين .

طوال تلك الفترة الممتدة من خروجي من التحقيق كنت أعمل على عدة أمور من أهمها تعلم وإتقان اللغة العبرية قراءةً وكتابة ، ولقد حققت هذا الهدف خلال بضعة أشهر ، وأصبحت أقرأ الصحف والكتب العبرية .

أما الهدف الثاني فلقد كان إعادة ما كنت قد خسرته من كتلة عضلية أثناء شهر التحقيق الستة بسبب قلة الحركة وانعدامها ؛ وبسبب القيود والسلالسل وبسبب قلة الطعام ، إن كان ما يُقدم يسمى طعاماً أصلاً .

ولقد تمكنت بحمد الله من استعادة صحتي الجسدية إلى ما كانت عليه سابقاً إن لم يكن أفضل ، فلقد كنت أقوم بالجري لمدة ساعة كاملة كل يوم ؛ وهي الساعة التي يسمح لي بالخروج بها من الزنزانة ، كنت أمارس تمارين الضغط وتمارين تقوية عضلات المعدة ، وباختصار شديد كنت أقرأ كل أنواع الكتب التي يمكنني الحصول عليها ، وكنت أحافظ على جدول تدربيي الرياضي بدون أن أسمح لأي عامل خارجي بالتأثير على ذلك الجدول ، وبعد ذلك بدأت محاكمتي وتم الحكم علي بسبعة وستين مؤبداً وخمسة آلاف ومئتي عام !!

في ذلك اليوم الذي حكم علي به حكم على قلعة جدي بأن تُنْجَر ، ففجروا القلعة

وأصبحت كومة من الركام ، فصعد أبنائي إلى أعلى الكومة وغرسوا عليها علمًا فلسطينيًّا وآخر أخضر حمساويًّا كتب عليه : " الله أكبر " .

لم أحزن يومًا من الأيام على أي شيء قمت به طوال حياتي ، سواء كانت تلك الحياة قبل أن أدخل فلسطين ، أو بعد أن دخلت فلسطين إلى قلب المقاومة ؛ إلى قلب العزة والكرامة .

خلال الأعوام التي قاربت العشر التي مرت علي وأنا معزول في زنزانة العزل الانفرادي ، تم اقتيادي للتحقيق عدة مرات كانت كلها عاديه ، بلا طعم ولا لون ، أما ما ضايقني وجعلني أستشيط غضبًا كان عندما عرض علي محققو الشباك الصهيوني تسجيلاً مصوراً لاعترافات أدلى بها مقاومان قساميان كان بادياً عليهم التعذيب الشديد والإعياء ، لم يكن هذان المقاومان معتقلين عند أجهزة المخابرات الصهيونية ولم يعذبا هناك ، بل كانوا قد خضعا للتحقيق على يد قوات أمن سلطة محمود عباس ، تلك السلطة التي عرفت أسفلاً درك من دركات الفساد والإفساد حتى أصبحت العمالة في نظر قادة أجهزتها الأمنية عقيدة زرعت وتغلغلت عميقاً أكثر مما يتصور البعض .



ابتي الحبية وملاكي الحارس ، اعلمي وليعلم كل من تقرأ عيناه هذه الكلمات والومضات أن الحياة واحدة وأن الرب واحد ، فإذا عيشت تتوجهها الكرامة والعزة ؛ وإنما موتة يقصد بها وجه الله عز وجل لترتقي بعدها الروح صاعدةً لله رب العزة .

إن فلسطين بأقصاها وقدسها تستحق كل ما قدمت لها ولأجلها ، ويشهد الله إذا ما بقي لي نفس ؛ فلن أدخل به على وطني السليب ، فليس بعد القدس إلا القدس ، وليس بعد القدس إلا القسام .

القسام ، رجال عملية الوهم المتبدد ، ذلك الوهم ؛ وذلك الحلم الذي حلمت أن أصحو منه محراً حراً ، حلمت أن أعود إلى كومة حجارة قلعتي ؛ إلى أطفالي ؛ إلى زوجتي وأببي وأمي ؛ إلى كل من أحبني من إخوة وأخوات ، الوهم المتبدد الذي جعلني أعيش أملاً وحلماً استيقظتُ من الحلم وعاد من عاد من الأسرى المحررين إلى أهله وذويه ، عادوا إلى غزة الحصار والانتصار ؛ عادوا إلى القدس وإلى الضفة ، وغادر من غادر مبعداً إلى بلاد الغربة ، أما أنا عبد الله البرغوثي ؛ أما أنا حسن سلامة ؛ أما أنا إبراهيم حامد ؛ أما أنا جمال أبو الهيجاء ؛ أما أنا عباس السيد ؛ أما أنا محمود عيسى ؛ أما أنا أحمد المغربي ؛ أما أنا بلال البرغوثي ؛ أما أنا وائل العباسي ؛ أما أنا فقيتُ مقيداً ملقى في زنزانة العزل الانفرادي حتى يومنا هذا ، فذهب الوهم المتبدد أدراج الرياح ، وبقيتُ بل بقينا تحت جبروت السجن والسجان ، ألم يعد هناك معتصم نعصتم به بعد الله يفك أسرنا ويكسر قيدنا ؟ ! أم أصبحنا نحيا في دنيا الوهم والأوهام المبتدةة ؟ !

اكتب يا قلمي من داخل أسرك ، اكتب من داخل عزلك ، فأنت قلم حر بيد أسير حر ،
اكتب بالله عليك اكتب ، فأناأشعر بالضيق ، اكتب يا قلمي ، اكتب أستحلفك بالله أن تكتب :

اكتب بحبرك عنِّي وعبر *** فرنزانتي خرساء صامته كالقبر
اكتب ولا تخف فأنت حر *** أما أنا أسير أتجرع المر
اصنع من حبرك كلمات الحرية النصر *** لتحقق عالياً في سماء الحرية وتطير
اصنع القصة واكتب عنِّي الخواطر *** وارو حكايات كل ثائر
فالقيد يكبل معصم الأسير وأنا أسير *** أما معصمك فلا يكبله إلا الضمير
فخط بهذا الدم الانتصار *** واجعله ساطعاً في السماء كالبدر
أمنتك بالله بالكتابة أن تستمر *** وأن تقول وتجول بالمعركة ولا تفر
اكتب بحبرك عنِّي وعبر *** فرنزانتي خرساء صامته كالقبر
فأنت قلم حر لا يشتري بدينار *** ولا يباع بسوق الصهاينة والكافر
فحبر حر يريك عليهم خطر *** وحريرتك لنا لفلسطين هي الظفر
فاظفر للحق والدين وخاطر *** واحرق بحبر دمك المستعمر
وبالعميل الحق الذل والعار *** وبكل معتد محتل غدار
فأنت اليوم فارس المنبر *** وأسد أسود عرين الغضنifer
ادحض كذبهم وأظهر التزوير *** وأطفئ نار كفرهم الشرير
فما عدت اليوم طفلاً صغيراً *** فحلق في السماء كالصقر وطير
واحذر شباكم شباك الغدر *** واحذر من كل عميل حقير سمسار

وَكُنْ بِيْدَ الْمُجَاهِدِ كَالْخَنْجَرِ *** وَكَسِيفٌ قَسَامِيٌّ مُجَاهِدٌ يَبْتُرُ

وَابْقَ عَلَى دربِ الْحَقِّ سَائِرٌ *** وَبِقَدْوَمِ النَّصْرِ يَهْلِلُ وَيَشْرُ

اكتب يا قلمي ، اكتب ولا تتوقف ، اكتب أنت حر ، أنت عبد الله غالب البرغوثي ، زوج
فائدة وأبو تala ؛ وأبو أسامة ؛ وأبو صفاء ؛ وأخو رائف ؛ وأخو محمد وريم وفائدة ؛ وابن غالب؛
وابن صفاء ؛ وابن القسام ، اكتب يا قلمي وعِّرْ فأنا ابن الإسلام والقسام .



أوراق كتافي هذا الذي كتبت تحت عنوان :

مهندس على الطريق ، أمير الظل

قد شارفت على الانتهاء ؛ بل انتهت ، وحان وقت طي صفحات الكتاب وصفحات الجراح ، أما قصتي ؛ لا ؛ لم تنته بعد ؛ فإن للحكاية بقية باقية ، وإن ما بقي أكثر وأكبر ؛ بل أعمق بكثير مما كُتب ورويَ ضمن صفحات هذا الكتاب ..

كتاب (مهندس على الطريق ، أمير الظل)

كتب هذا الكتاب في زنزانة العزل الانفرادي ،

داخل معقل رامون في الجنوب الفلسطيني ،

وهيأ من حدود مصر العربية ،

مصر التوره والثوار ،

كتب بعد الربيع العربي ،

الربيع الذي أمل أن يتحول لعاصفة على الصهاينة ...

عبد الله غالب عبد الله الجمل البرغوثي

بعض مآثره المجاهد البطل عبد الله البرغوثي مؤضراً

الحبيبة والبنين

على فراق الحبيبة والبنين	عيني تبكي وقلبي حزين
أنت شمعة قلبي السجين	فائدة التي الفؤاد والياسمين
وفي قلبك حبي الدفين	بوجهك البسمة كل حين
يا وردتي وأجمل الرياحين	فأنت حياتي وماء العين
مهما فرقنا العدو اللعين	سيبقى حبي لك قوياً متيناً

أسير بلا كفن

يا صلاح هذا الزمان	عبد الله يا ساكن الوجдан
أسيراً بسجن بلا عنوان	اليوم بت فارساً بلا حصان
بزنزانة العزل العفن	شهيداً حياً بلا كفن
رغم ظلم العدو اللعين	صابراً على المصائب والمحن
من أجل أن يرفع الجبين	يا من بذل الغالي والثمين
كهزيج الرعد بسماء فلسطين	ويمشي متتصب القامة لا يلين
كسخرة الأقصى ومراجع السنن	عزيز النفس كالتين والزيتون
ستبقى منارة المجاهدين	أباً أسامة يا وحشاً لا يلين

لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته ، فلقد كان فيكم للحرية عنواناً

أعلم أنني اليوم أعيش في ظلمة زنزانة العزل الانفرادي منذ سنين طويلة ، طويلة جداً ،
حتى أني لم أعد أحصيها ..

ولكن أذكر قبل دخولي إلى العزل أني عشت ستة أشهر في زنازين التحقيق شاهدت
خلالها الموت وكلماته وكلمني ، لسته في لحظات عديدة ، ولكن تغلبت عليه بعون الله
القادر القهار ..

ولكن أذكر أني عشت قبل ذلك أجمل وأروع أيام عمري ، فلقد رفعت رأسي عالياً
ورفعت راية التوحيد والجهاد أعلى وأعلى ، في زمن الذل والهوان ..

غداً سوف تأتي قطرة زيت لكي تضيء سراج الأقصى وقناديل القدس ..
غداً قادم ، فلا تقنطوا من رحمة الله ..

فهو الرحمن الرحيم ، وهو الغالب الجبار القادر على كل شيء ..

المهندس عبد الله غالب البرغوثي
أبي أسامة
أمير الظل ، ، أمير الصمت ، ، أمير الطريق